

الشـــمعة

عند شعراء العصر العباسى الثانى

د. أحمد فهمي عيسى

كلية التربية بدمياط جامعة المنصورة

مكتبة نانسي دمياط

هـــاتف : ٤٠٣٧٥٥ - ٤٠٦٦١٥ - ٣٢٣٣٦٩

فـــاكـس : ٠٥٧/٤٠٣٧٥٥

محمـول : ٠١٠١١٠٨٧١٩ - ٠١٢٧٥١٠١٠٦

البريـد الإلــكترونـــي :

www.nashahean@yahoo.com

اسم الكتـاب : الشمعـــة عنـد شعـراء العصر العبـاســي الثـانـــي.

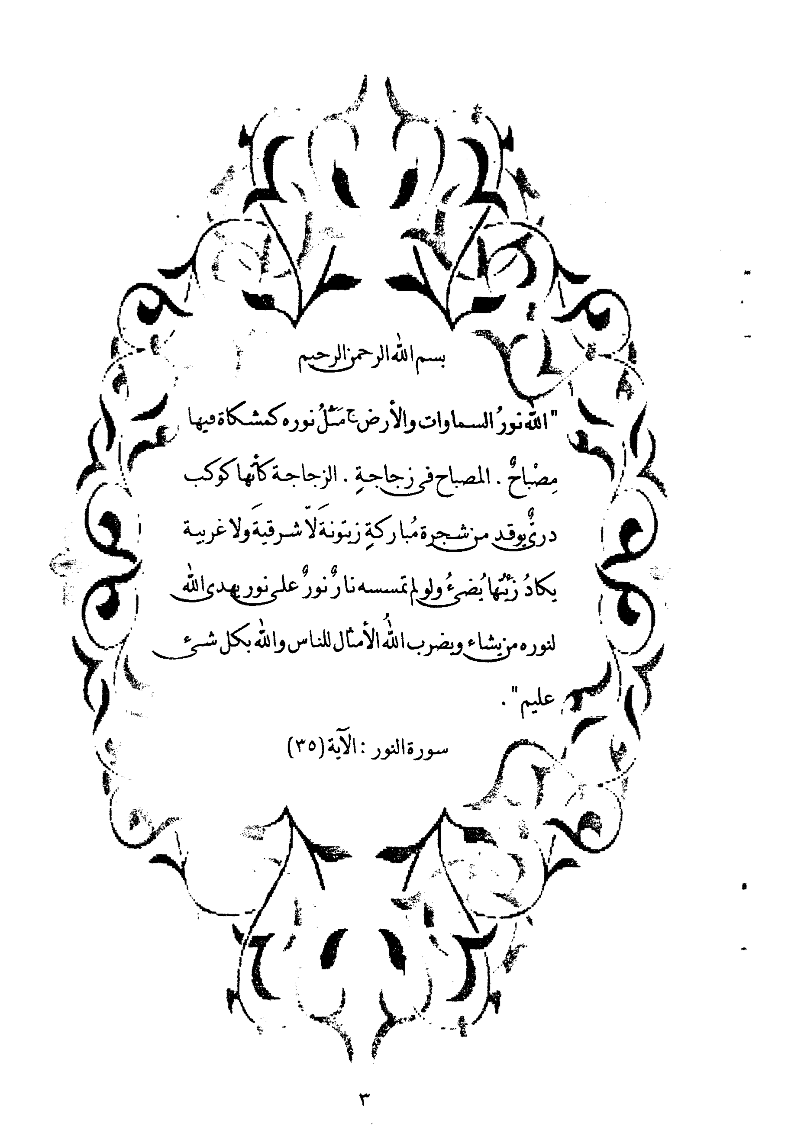
اسم المـؤلف : د/ أحمـــد فهمـــي عيســـي.

اسم النـاشر : مكتبـــة نـانســي دميــاط.

اسم الطـابع : مطبعـــة نـانســي دميــاط.

رقم الإيـــداع : ٤٤٦٧/ ٢٠٠٣.

الترقيم الدولي : ٩ -٣٣-٥٨٦٧-٩٧٧ I.S.B.N .


بسم الله الرحمن الرحيم
"الله نورُ السماوات والأرض مَثَلُ نوره كمشكاة فيها
مِصْبَاحٌ . المصباح في زجاجةٍ . الزجاجة كأنّها كوكب
درّيٌ يوقد من شجرة مُباركةٍ زيتونةَ لا شرقيةَ ولا غربية
يكادُ زيتُها يُضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ نورٌ على نور يهدي الله
لنوره من يشاء ويضرب اللهُ الأمثال للناس والله بكل شيء
عليم" .
سورة النور : الآية (٣٥)

المقدمة :

لقد عاش شعراء العصر العباسى الثانى حالة اغتراب شديدة ؛ نظــراً لأن الاستقرار والأمان اللذين كان يعيشهما المجتمع فى العصر العباسى الأول زالا بزوال قوة الخلافة حيث وصل إلى سدة الحكم خلفاء ضــعاف أصــبحوا ألعوبة فى يد الأتراك كالمقتدر الذى حكم فى نهاية القرن الثالث ومعظم الربع الأول من القرن الرابع ، أو نظراً للقطيعة بين الحكام والمحكومين حيث قبض البويهيون والسلاجقة من بعدهم على زمام الحكم . وتقدّم رجال صغار وتخلّف رجال كبار ، ووقف الزمن ضد كل صاحب طموح وموهبة ، وتاهت علامات بارزة فى وسط الزحام .

وهنا وجد الإنسان نفسه تائها حائراً . غير آمن على يومه وغده . بدأ يحس بالفقد والغربة . وبدأت الإيقاعات تعزف منفردة خارجــة عــن إطــار منظومات جماعية . وبدت الوحدة هى ديدن الإنسان فى هذا العصر . وللوحدة لوازمها ، مرارتها فى الليل . حيث تعصر المرارة أهليها فيجــافيهم النــوم . ومن هنا يبرز دور الشمعة كلازمة من لوازم الوحدة . ولأن الشاعر إنســان كان فى حاجة إلى الشمعة لتؤنس وحدته ، ولتنير ظلمة بصيرته قبل أن تنيــر ظلمة بصره .

والشمعة كانت فى حاجة إلى الشاعر أيضاً لأنها عادة فى حاجة إلــى من يبث فيها الحياة ، حتى وإن كانت حياتها مدفوعة حتمــا إلــى النهايــة . فالإنسان أيضاً حياته مدفوعة إلى النهاية فلا فرق بين الاثنين .

المهم أن الشاعر العباسى فى العصر الثانى أحس بالشمعة فبدأ يصفها متأملاً ، بل بدأ يخلع عليها مشاعره ، حيث جعلها ذوب نفسه . كل هذا كــان

جديداً برغم أن الشمعة كانت موجودة قبل ذلك بكثير إلاّ أنها لم تلفت نظر الشاعر القديم بمثل ما لفتت نظر شاعرنا فى العصر العباسى الثانى .

فوجدنا عند شعراء العصر العباسى الثانى مقطوعات شعرية كثيرة تفيض جمالاً وحرارة حول الشمعة ، حتى تحولّت هده المقطوعات إلى ما يشبه الظاهرة الشعرية مما جعلنا نقف عندها فى هذا البحث .

فإذا كانت الشمعة تضىء لتُظْهِرَ الأشياء فهى فى حاجة إلى من يظهرها ويبرزها ، مسلطاً الأضواء على دورها المادى والمعنوى ، ولهذا جاء هذا البحث بعنوان " الشمعة عند شعراء العصر العباسى الثانى " محاولين فيه أن نبلور هذه الظاهرة .

وقد جاء البحث فى تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

التمهيد : يدور حول ماهية الشمعة ، وطرق صناعتها ، وفوائدها وما كتب عنها فى النثر .

الفصل الأول : يدور حول " وصف الشمعة " وفوائدها فى الشعر .

الفصل الثانى : يدور حول " الشمعة فى وجدان الشعراء " حيث يدرس العلاقة النفسية بين الشاعر والشمعة من خلال دراسة حياة بعض الشعراء الذين كتبوا فى الشمعة .

الفصل الثالث : يدور حول " شعراء الشمعة نظرات فنية " حيث يبرز بعض السمات الفنية فى شعر الشمعة .

الخاتمة : تسجل بعض النتائج التى توصل إليها البحث .

وفى النهاية ينبغى أن أشـير إلـى أن دراسـة الأدب مـن الناحيـة الحضارية، وهو ما أحاول أن التزم به فى دراساتى العباسية أمر شاق وشيق، شاق لأنه يستلزم جهداً كبيراً فى البحث والتنقيب فى بطون الكتب والمصادر، حتى نجمع ولو نتفاً بسيطة حول ظاهرة معينة ، ثم محاولة بسطها فى بحـث معين ، وشيق لأنه عندما يتم البحث ويسلط الضوء على ظاهرة معينة يُنسـى الجهد الذى بذل ، بل يستبدل بمتعة تعادله وربما تفوقه .

وأخيراً أرجو من الله العلى القدير أن يلهمنى الصواب وأن ينفع بمـا أكتب وأن أنتفع بما أتعلم . وحسبى أننى حاولت واجتهدت .

أحمد فهمى عيسى

تمهـــيد

والشمعة من الشمْع ، " والشَّمَع محركة الميم مُوَلَّدٌ : هو الذى يستصبح به أو مومُ العسل ، القطعة : بهاء .
وشَمَعَ ، كمنع ، شمعا ، وشمُوعاً ، ومشمعة : لعب وفرح
وشَمَعَ الشىء شموعا : تفرّق ، ومِسْكٌ مَشْمُوع : مخلوط بالعنبر .
وأَشْمَعَ السّراج : سطع نوره . وشمّع الثوب : غمسه فى الشمع المذاب [١] " .

فالشمْع هو الذى يستصبح به أى الذى يستخدم فى الإضاءة حتى الصباح كما نُلاحظ أن ميمه تكون بالفتح فينطق : الشّمَعَ وتكون بالسكون فينطق الشَمْع . فقد جاء فى المصباح المنير ، " قال ثعلب : الشّمَعُ بفتح الميم وإن شئت أسْكنتها ، وقال ابن السكيت : الشّمَعَ بفتح الميم وبعض العرب يخفف ثانيه ، وقال ابن فارس : وقد يفتح الميم فامهم أن الإسكان أكثر ، وعن الفرّاء : الفتح كلام العرب ، والمولّدون يُسكنونها [٢] .

ومن هنا نفهم أن الشمْعة قد تسكن ميمها وقد تفتح ولكن الغالب تسكين الميم . فهى شمْعة أو شمَعَة . فالشمْعة واحدة الشَمْع . أو كما قال ابن سيدة : الشّمَع والشّمْع لغتان فصيحتان [٣] .

والشمعة تصنع من مادة رخوة تتكون من خليط أغلبه دهنى . هذه المادة هى الشمع " والشمع : مادة دهنية تستخدم على نطاق واسع كطبقة واقية لمختلف الأسطح وهى تقاوم الهواء والماء والتغيُّر الكيمائى . ومعظم الشمع صلب فى درجة حرارة الحجرة ويلين بالتسخين .

---

[١] – القاموس المحيط : مادة (شمع) . والمُوم : بالضم ، الشَّمعُ معَرب (المصباح المنير)
[٢] – المصباح المنير : مادة (شمع) .
[٣] – لسان العرب : مادة (شمع) .

ويقوم أصحاب المصانع بإنتاج ثلاثة أنواع رئيسة من الشمع : الشمع المعدنى ، والشمع الحيوانى ، والشمع النباتى ، ويخلط معظم أصحاب المصانع نوعين أو أكثر من الشمع ليكتسب منتجهم الصفات المرغوبة .

الشمع المعدنى : يستخدم معظم الشمع المعدنى من النفط حيث تستخدم عمليات كيميائية لفصل الزيت عنه ، وهناك ثلاثة أنواع رئيسة من شمع النفط: شمع البرافين ، والشمع الدقيق التبلور ، والفازلين .

وتختلف هذه الأنواع من الشمع من ناحية اللون والصلابة ودرجة الانصهار ، ويقاوم شمع النفط الرطوبة والكيماويات ، وليس له طعم أو رائحة .. وتصنع معظم الشموع من شمع البرافين .

الشمع النباتى : لكثير من النباتات طبقة شمع طبيعية تحميها من الحرارة والرطوبة ، فأوراق نخيل الكرنوبية تكتسى بهذه الطبقة ، وينتج منها الشمع الكرنوبى وهو من أصلب أنواع الشمع النباتى ، وأكثرها استخداماً ويظل هذا الشمع صلباً فى الجو الحار .

الشمع الحيوانى : يستخدم وحده أو يخلط بشمع النفط لصنع الشموع والمواد الملمعة والمنتجات الأخرى .

وينتج النحل شمع النحل عندما يكوّن قرص العسل ، ويستخرج شمع الصوف من طبقة شحمية توجد على الصوف غير المعالج ، ويستخدم دهن صوف الغنم – وهو نوع من شمع الصوف – فى صنع مستحضرات التجميل[1] .

---

[1] – الموسوعة العربية العالمية : مادة شمع ، المجلد الرابع عشر ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، السعودية ، الطبعة الأولى .

ولمّا كانت الشمعة فى العصر العباسى تصنع فى الأساس من شمع النحل على الأغلب لذا ينبغى أن نركز عليه . لنعرف كيف تصنع النحلة الشمع حيث " تتطور غدد خاصة منتجة للشمع فى بطون الشغالات وعمرها عشرة أيام تقريباً ، وتأكل الشغالات كميات كبيرة من العسل ، وتعمل الغدد الشمعية على تحويل سكر العسل إلى شمع .

ويتسرّب الشمع من خلال ثقوب صغيرة فى الجسم ، ويشكل رقائق بيضاء ، على الوجه الخارجى للبطن ، وتشكل النحلة عادة ثمانى رقائق فى الوقت نفسه ، وتنزع النحلة الرقائق من على بطنها بواسطة أرجلها رافعة إيّاها إلى فكّيْها ، وبعد أن تمضغ النحلة الشمع ، تضعه على جزء من قرص العسل الذى تبنيه . وتنتج النحلة شمع النحل عندما تحتاجه لبناء قرص العسل. وتصنع النحلة بشكل عام ابتداءً من اليوم العاشر وحتى اليوم السادس عشر من حياتها [١] .

والشمعة : قضيب من مادة دهنية تتوسطه فتيلة يستضاء به وتصنع الشمعة من شمع النحل أو مادة مشابهة ، وعندما تضاء الشمعة يسيل الشمع الذى يصهره اللهب ، ويحترق هذا الشمع المنصهر ، وينتج عنه الضوء . وتصنع الشموع فى ألوان وأشكال وأحجام مختلفة ، وتُعطر بأنواع مختلفة من العطور [٢] .

ولقد استخدمت الشموع منذ ما قبل التاريخ المكتوب وكانت تصنع من مواد مختلفة خلال القرون ، بما فيها شمع شجرة الشمع ، وشمع النحل ،

---

[١] - الموسوعة العربية ، جـ ٢٥ ، ص ١٧١ .

[٢] - نفسه ، جـ ١٤ ، ص ٢٦٠ .

وشمع البرافين ، وشمع حوت العنبر ، والشحم الحيوانى ، وتصنع الشموع يدوياً وفق ما يلى :

إما أن يغرس الخيط عدة مرات فى الشمع السائل ، أو يصب الشمع السائل فى قالب بداخله خيط معلق ، أو تلف طبقات من الشمع اللين حول الخيط ، ويستخدم صناع الشمع الآلات التى تنتج كميات كبيرة من الشمع .

وقبل انتشار استعمال الكهرباء للإضاءة فى أوائل القرن العشرين كان الناس يستخدمون الشموع مصدراً للضوء ، أما فى الوقت الحاضر ، فإن الشموع تستعمل فى المناسبات مثل حفلات الميلاد ، أو للزينة فى الرحلات وداخل المنازل .

وبعض الناس يهوون صناعة الشموع ، وأكثر الوسائل أمناً لإطفاء الشمعة هو خنقها بآلة معدنية تسمى المطفأة [1] .

وفى العصر العباسى الثانى كان الاهتمام بالغاً بالشمع من حيث جلبه من الأماكن المختلفة إلى جانب استخدامه فى الإضاءة بالإضافة إلى استخدامه فى الأعياد والمناسبات المختلفة . ففى الاحتفال بأحد الأعياد حكى أن نازوك – القائد التركى على عهد المقتدر – تحرك " فى موكبه وبين يديه أكثر من خمسمائة فرّاش بالشموع الموكبية [2] ، سوى أصحاب النفط [3] " .

---

[1] – الموسوعة العربية ، جـ ١٤ ، ص ٢٦٠ .

[2] – الشموع الموكبية ، نسبة إلى الموكب ، وهى الشموع الضخمة التى توقد فى المواكب أى فى المسير جماعات ركباناً كانوا أو مشاة .

[3] – رسوم دار الخلافة : هلال الصابئ ، تحقيق ، ميخائيل عواد ، ص ٩ ، دار الرائد العربى ، بيروت ، أصحاب النفط : هم حاملوا مشاعل النفط فى المواكب .

وفى مصر فى هذا العصر " كان المصريون يحتفلون بعيد الغطــاس احتفالاً كبيراً ، وهو يسمى عيد الغطاس ، لأن كثيراً مــن النصـــارى كـــانوا يغطسون فيه فى النيل .. وكان فى الرسوم القديمة بمصر أن يركب متــولىّ الشرطة ليلة الغطاس فى موكب كبير ، وتوقد بين يديــه الشــموع الموكبيــة والمشاعل ؛ فيطوف الشوارع وينــادى فــى النـــاس ألا يخــتلط المســلمون بالنصارى فى تلك الليلة وألا ينكّدوا عليهم عيدهم " [١] .

وفى عيد الغطاس " كان العادة أن يضاء سوق الشـمّاعين بإضــاءة كبيرة، وكانت حوانيته لا تزال مفتّحة إلى نصف الليل " [٢] .

ولم يكن استخدام الشمع فى الأعياد فقط ، بل كان يستخدم كذلك فــى المناسبات السارة كتولية الوزارة فيحكى أن أبا الحسن على بــن الفــرات – وزير المقتدر " لما خُلِع عليه خِلَع الوزارة زاد فى ذلك اليــوم ثمــن الشــمع قيراطاً فى كل مَنّ [٣] ، وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما وكــان مــن رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلاّ ومعــه شــمعة منويــة ودرج منصورى – وجرى رسمه مدة وزارته أن يعطى كل من يخرج من داره عند اصفرار الشمس شمعة " [٤] .

ونظراً لأهمية الشمع وكثرة استخدامه كان يدرج له ميزانية خاصة من فى ميزانية دار الخلافة ففى أيام الخليفة المكتفى فى آخر القرن الثالث الهجرى

---

١ – الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ؛ آدم متز ، جـ٢ / ٢٨٩ .

٢ – نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٩٠ .

٣ – المن : مكيال يزن رطلين .

٤ – الحضارة الإسلامية : آدم متز ، جـ١ / ١٨٢ .

" كانت أرزاق الفراشين والمجلسيِّين ، وخزّان الفرش ، وخزان الشمع ، وأجرة الأعوان والحمالين فيها ، فى كل شهر أيامه خمسون يوماً من جملة ألف وخمسمائة دينار ثلاثين ديناراً .

ثمن الشمع والزيت من جملة مائتى دينار فى الشهر . اليوم ستة دنانير وثلثى دينار " [١] .

ونظراً لكثرة استعمال الشمع بالذات فى الطبقة العليا . كانوا يضطرون لاستيراده من الخارج ، يقول آدم متز : " أما ما كانوا يصدرونه من العسل والشمع والوبر فكان يحمل إليهم من ناحية الروس [٢] " .

وكثيراً ما يلجأ بعض الناس إلى تخزين الشمع وتعتيقه – وبالذات الشموع الضخمة – بغرض إبطاء النار فيها ، فقد جاء فى نشوار المحاضرة أن ابا الحسن بن عياش عندما أجاب دعوة لأبى الطيب بن أبى جعفر الطائى قال : " وكان أحسن ما شاهدنا له شمعتين موكبيتَين فيهما ثلاثون أو أربعون منّ فى تورين [٣] كبيرين نصبهما فى وسط المجلس ، وفرّق الشموع الصغار حواليهما .

فكان الفرّاشون إذا أرادوا قطّ الشمعتين ، تطاولوا شديدا حتى يقطّوهما.

وكان لون الشمعتين غير مليح يضربُ إلى البياض ، مما قد عَشَبَ عليهما من التراب .

---

[١] – الوزراء ، أو تحفة الأمراء : لأبى الحسن الهلال الصابى ، تحقيق ، عبد الستار أحمد فراج ، ص ٢٣ ، عيسى البابى الحلبى ، سنة ١٩٥٨ .

[٢] – الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، جـ٢ / ٣٧٤ .

[٣] – المنّ : الذى يوزن به يساوى رطلين ، والتور : أداة تثبت فيها الشمعة .

وجلسنا إلى قريب من الغداة وهما تتقدان فى ليلة شتوية ، ونمنا وانتبهنا ، وهما تتّقدان ، [فنظرت] فإذا الذى اتّقد من كل واحدة منهما ، أصابع يسيرة ، وهما بحالهما .

قال : فما تمالكت ، أن سألته ، فيما بينى وبينه ، عن سبب ذلك فقال : هما عندى ، وعند ابى من قبلى ، منذ خمسين سنة ، ما استعملناهما وعندنا شمع كثير هذا سبيله ، تعمّدنا تعتيقه ، لأنّه بلغ أبى أنّ الشمعَ إذا عتّق عشراتِ سنين ، ثم استعمل ، كان ما يحترق منه هذا القدر ، ونحوه .

فعتّق شمعا كثيرا ، ونَسِيَهُ ، ومات ، وتشاغلت بعده عن استعماله سنين ، فلما احتفلت لهذه الدعوة الآن ، ذكرت الشمع العتيق الذى فى خزائننا، فأخرجت هاتين منه ، وكان من أمرهما ما رأيت ، وصحّت التجربة لنا فيهما " [1] .

وهكذا وجدنا المجتمع فى العصر العباسى الثانى كان يهتم اهتماماً بالغاً بالشمع فكان أفراده يحرصون على جلبه واستخدامه فى الإضاءة والأعياد والمناسبات المختلفة وبالذات الأفراد من الطبقة العليا أو من له صلة بهذه الطبقة .

وبطبيعة الحال كان الأدباء ممن لهم صلة بالطبقة العليا ، ولهذا وجدنا الشموع فى دور كثير من الأدباء ، إما أنها جاءته مشتراة أو مهداة . ولذا رأينا الأدباء كتّاباً وشعراء يتبارون فى الحديث عن الشمعة ، وإن كان الحديث

---

[1] - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة : القاضى أبى على المحسن بن على التنوخى ، تحقيق عبود الشالجى ، جـ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، دار صادر - بيروت ، ١٣٩١هـ ، ١٩٧١م .

فى الشعر عنها أكثر ، فإن النثر لم يتركها هملا ، بل وجدنا بعض المقطوعات النثرية التى تحدثت عن أوصافها وفوائدها ، بل تعدى الأمر إلى وجود بعض المناظرات النثرية بين الشمعدان والقنديل ، مما يدل على أن الشمعة كانت حاضرة فى أذهان الكتّاب ، وليس فى أذهان الشعراء فقط .

فمن المقطوعات النثرية ما أورده النويرى فى نهاية الأرب من رسالة لابن الأثير الجزرىّ يتحدث فيها عن الشمعة وشعلتها عندما تداعبها الريح يقول : " وكان بين يدىّ شمعة تعم مجلسى بالإيناس ، وتغنى بوجودها عن كثرة الجلاس ، وكانت الريح تتلعَّب بشعَبها ، وتدور على قطب لهبها ؛ فطوراً تقيمه فيصير أُنْمُلَةً ، وطوراً تُميلُهُ فيصير سلسلة ، وتارة تجوِّفه فيصير مُدْهُنَة، وتارة تجعله ذا ورقات فيمثل سوسنة ، وآونة تنشره فيبسط منديلا ، وآونة تَلُفُّهُ على رأسها فيستدير إكليلاً " [1] .

وفى رسالة أخرى له صوّر لهبها بصور أخرى يقول : " وكانت الريح تتلعَّبُ بلهبها لدى الخادم فتشكله أشكالاً ، فتارة تُبْرزه نجما ، وتارة تبرزه هلالا ؛ ولربما سطع طوراً كالجلّنارة فى تضاعيف أوراقها ، وطوراً كالأصابع فى انضمامها وافتراقها " [2] .

أما عن المناظرة بين القنديل والشمعدان فقد أوردها النويرى أيضا [3] . وفيها يفتخر الشمعدان على القنديل بأنه يختص بمنادمة الملوك والأمراء . يقول الشمعدان : " لستَ بنديم الملوك فى المجالِس ، كلاَّ ولا الروضة الغنّاء

---

[1] - نهاية الأرب للنويرى ، جـ١ ، ص ١٢٣

[2] - نهاية الأرب : جـ١ / ١٢٣ .

[3] - نهاية الأرب : جـ١ ، ص ١٢٤ إلى ص ١٢٩ .

للمُجالس ! طالما أحدقت بى عساكر النظّار ، ووقفت فى استحســان هيــاكلى رؤية الأبصار ؛ وحُملْتُ على الرؤوس إذا عُلّقْتَ بآذانك ، وجُلِّيــتُ كجــلاء المرهفات إذا اسودّ وجهك من دخانك " .

فيرد عليه القنديل بأنّه يجالس أهل الدين فى الأماكن المقدسة يقول : " إن كان فخرك بمجالسة السلاطين فافتخارى بمجالسة أهل الــدين ! ، طالمــا طلعتُ فى أفق المحراب نجماً ازداد علا ، وازدانت الأماكن المقدسة بشموس أنوارى حُلا : جمع شكلى مجموع العناصر ، فعلى مثلى تُعْقَــدُ الخناصــر ، يحسبنى الرائى جوهرة العقد الثمــين ، إذا رأى اصــفرار لونــك كصــفرة الحزين.. "

فيرد عليه الشمعدان متباهياً بارتفاع ثمنه ، وأنّه لا يكون إلاّ عند علية القوم .

فيرد عليه القنديل بأنه يوضع فى موضع أعلى من موضـــعه فيقــول الشمعدان : " طالما علا القَتّام وانحطت الفرسان ، ومكث الجمر وسما الدّخان"

ثم تستمر المبارزة وكل منهما يستخدم أحاجيه وأدلته إلى أن تنتهــى المناظرة وكل منهما يعترف بفضل الآخر " .

وهكذا وجدنا أن النثر لم يكن بمنأى عن وصف الشمعة .

ولكن الشمعة كانت قريبة كل القرب من الشاعر لأنّها كانت مؤنســته وأداته فى الليل الطويل . ولهذا وجدنا الشاعر يتأملها ، ويدقق فيها ، بل يخلع عليها حالته النفسية ، لأن حاله كحالها . فخرجت إلينا مقطوعات شعرية رائعة وصفت الشمعة ، وذكرت فوائدها ، وصوّرتها ، وبيّنت التلازم النفسى بينهــا وبين الشاعر . وهذا ما سنحاول أن نوضحه من خلال هذا البحث .

الفصل الأول

وصـــف الشــمعة

وصف الشمعة : والوصف من الأغراض الشعرية القديمة الحديثة لأن الإنسان منذ القدم جبل على وصف كل ما تقع عليه عيناه ، كما أن الموصوف يتغير من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى أخرى ومن هنا كانت حداثة الوصف .

والشمعة من الأشياء التى لفتت انتباه الشعراء فى العصر العباسى الثانى وأثارت تأملهم فتوقفوا عندها بالنظر مدققين فى كل جزء منها ، راصدين كل حالة من حالتها ، ربما لأن وجود الشمع ، أصبح ظاهرة حضارية أو ربما لأن الشمعة هى الرفيقة والمؤانسة فى ليلهم الدامس ، فما أكثر ما أغلقت عليهم أبواب .

فالشاعر عندما يصف الشمعة يصف شيئاً مقرباً إلى نفسه فوجدناه يفتن بقدها وقوامها ، ووجدناه يدهش للونها ، ووجدناه يشفق عليها من بكائها وهو يعلم أنها تبكى لتموت ، وجدناه يتأمل فى عريها . وجدناه مقشعر البدن عندما يراها تُنحر لتضىء للآخرين . إنها عنده فى النهاية مثال للتضحية .

والشعراء عندما قدموا هذه الأوصاف للشمعة لم يقدموها بأولوية واحدة ، ولكن أحياناً يبدأ شاعر بالقوام المعتدل ، ثم يثنى ببقية الصفات ، وأحياناً يفضل البدء باللون وأحياناً يبدأ ببكائها ودموعها . ونحن سنتعرض لأوصاف الشمعة حسب بدايات الشعراء لأوصافها . فنبدأ بمن بدأ بالحديث **عن قوام الشمعة واعتدالها وما أضاف من أوصاف أخرى .**

فيطالعنا الميكالى ليرى الشمعة معتدلة القوام كقوام الغصن ، حيث تقل مع نورها قيمة حمرة الشمس عند الغروب لأن نور الشمعة مع الليل يزيد والشفق مع دخول الليل ينتهى ، ولكنها تستقبل الليل بدموعها وقلقها البادى فى

اهتزاز شعلتها ، مما يضفى على لونها صفرة كصفرة العاشق ، فكأنها تكابد ما يكابد، ولكن العاشق جواه وناره فى حشاه أما هى فنارها فى رأسها . إنها تلازمنا فى فترة نحن فى أمس الحاجة إليها فيها من الغروب إلى الشروق وكأنها تعبر بنا طريق الليل المظلم بأمان يقول الميكالى : [1]

يـــا ربّ غصـــن نـــوره
يـــزرى بنـــور الشـــفق
يظـــلُّ طـــول عمـــره
يبكـــى بجفـــن أرق
صـــفرته تخبـــر عـــن
عشـــق ولـــم يعشـــق
نـــار المحـــبّ فـــى الحشـــا
ونـــاره فـــى المفـــرق
لاح لنـــا فـــى مغـــربِ
فردتـــا فـــى مشـــرق

أما الوأواء الدمشقى فيصور الشمعة معتدلة القوام كالغصن أو كالألف الذى يرسمه بقلمه ، يمتلئ فمها بالرضاب . ولكنه رضاب ملتهب ، هى عريانة ولكنه عرى يثير فى النفس العجب ، تظل طوال ليلها تسكب الدمع من عينها ، إنها تكابد ، فعمرها هو فترة مكابدتها . يقول [2] .

---

[1] – ديوان الميكالى : تحقيق جليل عطية ، ص ١٥٨ ، عالم الكتب ، بيروت - الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
[2] – ديزان الوأواء الدمشقى ، ص ٥٠ .

قـــوام غصـــنٍ كأنّـــه ألـــفٌ
تهدى لنـــا مـــن رضـــابها لهبـــاً
باطنهـــا مكتســـى وظاهرهـــا
للعـــين يُبـــدى مَنْزَهـــا عجبـــاً
قد يئسـت مـن بكائهـا فتـرى
أدمعهـــا طـــول ليلهـــا سَـــكِبا
تكابـــد الليـــل وهـــى جاهلـــة
وعمرها فـــى الكبـــاد قـــد ذهبـــا

أما الصنوبرى فيراها دقيقة القدّ ، مفتولة القوام ، ملساء كالدروع ، أو كالخدود الملساء الناعمة ، حياتها تنذر دائماً بمماتها ، فالنار التى تشتعل فـــى رأسها هى التى تقطع فى أجلها . يقول : [١]

مجدولـــــة فـــــى قـــــدّها
تحكـــى لنـــا قـــدّ الأســـل
كأنّهـــا عمـــــر الفتـــــى
والنـــار فيهـــا كالأجـــل

ثم يعود الميكالى ليحدد المادة التى تصنع منها الشمعة فهى من نبـــات النحل ، أى من شمع النحل ، ثم يصفها ؛ معتدلة كالجارية الكاعب ، صـــفراء

---

[١] - ديوان الصنوبرى ، ص ٤٣٥ . ووردت الأبيات فى ديوان الـــوأواء الدمشـــقى ، ص ١٨٠ مع استبدال (مجدولة) بـــ (ممشوقة) .

باكيةً كالعاشق ، إذا تنعّم الناس بأثوابهم فإن ثوبها – يقصد خيطها الداخلى – لا يجرّ عليها غير الشقاء والبلاء .

يقول الميكالى [1] :

وقضيبٍ من بنات النحل فى قدّ الكعاب
يشبه العاشق فى لونٍ ودمع ذى انسكاب
كسى الباطن منه وهو عريانُ الإهـــاب
فإذا ما نعّم الأبــدان ملبــوس الثيـــاب
فهو للشقوة منها فـــى بـــلاءٍ وعـــذابِ

ويأتى سليمان النصيبى ليرسم لنا لوحة حيّة للشمعة ، وفيهـــا تظهـــر الشمعة مصقولة مثل صدر القناة ، عريانة من الخارج مكتسية من الـــداخل ، تصب من مقلتها دموعاً هى التى تعطيها الحياة ، لها رأس من الخيط كالبرنس لا تستيقظ من نعاسها إلاّ بقطٍّ رأسها ، إذا ما داعبتها الريح الخفيفة أخرجـــت لساناً كالذهب .

هذه الشمعة تغمرنا بالسعادة لأنها تضىء ليلنا الدامس ، وهـــى بهـــذا العمل منحوسة تعسة لأنها وهى تُفْنى ظلام الليل تَفْنَى هى أيضاً ولكنها علـــى أية حال آلة للندامى يستعينون بها فى ليلهم فتضفى علـــى مجلســـهم الســـعادة والمرح . يقول : [2]

---

[1] – ديوان الميكالى ، ص ٤٨ .

[2] – يتيمة الدهر ، جـ١ ، ص ٤٠٩ .

ومجدولـــةٌ مثـــل صـــدر القنـــاة

تعـــرّتْ وباطنهــــا مكتســــيِ

لهـــا مقلـــةٌ هـــى روحٌ لهـــا

وتـــاج علـــى الـــرأس كـــالبرنس

إذا رنقـــــت لنعـــــاس عـــــرا

وقطت مـــن الـــرأس لـــم تـــنعسِ

وإن غازلتهـــا الصـــبا حركـــت

لســـانا مـــن الـــذهب الأملـــس

وتنــــتج فـــى وقـــت تلقيحهـــا

ضـــياءً يُجَلِّـــى دُجَـــا الحِنْـــدسِ

فـــنحن مـــن النـــور فـــى أســـعد

وتلـــك مـــن النـــار فـــى أنحـــس

وقد ناب وجهـك عـــن ضـــوئها

وعـــن ذا البنفســـج والنـــرجس

ولكنهــــــا آلــــــة للنــــــدام

ونجـــمٌ تـــألّق فـــى المجلـــسِ

توقّـــــدُها نزهـــــة للعيــــون

ورؤيتهـــا منيـــــة الأنفـــسِ

تكيـــد الظـــلام كمـــا كادهـــا

فتفنـــى وتفنيـــه فـــى مجلـــس

أما الطغرائى فينعتها بالنخلة فى اعتدالها ولكنها ليست كالنخلـــة فـــى ارتفاعها ولهذا فثمارها قريبة ، كما أنها ليس لها عـــروق فـــى الأرض ، ولا تنتج سعفا كالنخلة . ثم يشير إلى كسائها الفضى المركب فى جسدها الذهبى، تستمد حياتها من ذوبها ، أشعتها الذهبية تعطى نوراً وناراً فى نفـس الوقــت ولذلك فهى أشبه ما تكون بالشهب ، وفور إضاءتها سرعان ما يفــرّ الظــلام ويمعن فى الهرب .

يقول الطغرائى [1] :

أنعـــــت نخـــــلاً تجتنـــــى
ثمارهــــا مـــــن كتـــــبِ
مخلوقـــــة مـــــن فضـــــةٍ
مغموســـــة فـــــى ذهـــــبِ
مـــــن ذوبهـــــا تســـــقى ولا
تـــــروى إذا لـــــم تـــــذُب
لا عرقهـــــا تحـــــت الثـــــرى
ولا لهـــــا مـــــن كـــــرَبِ
تحمـــــل فـــــوق رأســـــها
جُمّـــــارة مـــــن ذهـــــب
وطلعهـــــا منســـــبك
مـــــن ذوبهـــــا المنســـــكب
مغروســـــة فـــــى مجلـــــس
ضـــــنكٍ بمـــــرأى عجـــــبِ

---

[1] – ديوان الطغرائى ، ص ٧٥ .

نوريَّـــــــــــةً ناريَّــــــــــــة

شـــــــــــبيهة بالشـــــــــــــهب

يمعــــن جنـــد الليـــــل مــــن

لقائهـــــــــا بـــــــــــالهرب

وإذا كانت الأمثلة السابقة قد ركزت على قوام الشمعة واعتدالها فبعض الأمثلة **يركز على اللـون** أولاً قبل غيره من الصفات ، فأبو الفرج الببغـاء – يضع الشموع الصفر على الكراسى الصُّفر (النحاس) ويلبسها غلائـل مـن شمس الأصيل (الصفراء) فتعطى خلعاً من الصُّفر أى من الذهب ، ثم إنهـا تذرف دموعاً كالتبر الأصفر . فنجده قد ركّز على لونها الأصفر بالإضافة إلى ما نعتها به من صفات سابقة يقول الببغاء [1] :

وصفر كأطراف العوالى قـدودها

قيام على أعلى كراسٍ من الصُّـفْرِ

تلبسَّن من شمس الأصيل غلائــلاً

فأشرقن فى الظلماء بالخِلعِ الصُّفرِ

عرائس يجلوها الـدجى لمماتهـا

وتحيا إذا أذرت دموعاً من التبـرِ

إذا ضربت أعناقها فى رضا الدجى

أعارته من أنوارها خِلَـع الفجْـرِ

---

[1] – نشوار المحاضرة : القاضى المحسن التنـوخى ، جـــ٢ / ٣٠٦ ، ديـوان الببغـاء ص ١٠٠ .

تبكي علـــى أحشـــائها بجســـومها

فأدْمُعُها أجســـامها أبـــدا تجـــرى

علاها ضياءٌ عامل فـــى حياتهـــا

كما تعمل الأيّام فى قِصَرِ العمـــرِ

أما أبو إسحاق الصابئ فيقدمها على إناء من فضة حتى يبرز لنا لونها الأصفر ، فكأنها شفق الشمس فى وقت الضحى فجمع بين حالتين للشمس فى وقت واحد . يقول :

صـــفراءُ كـــالتبر جامُهـــا يَقَـــق

شـــــعاعها كالـــــذبال يــــأتلق

كأنّ فى كــفٍّ مَـــنْ أتـــاك بهـــا

ضحى نهار فـــى وســـطه شـــفق

فهى صفراء كالتبر ، أو كشعلة الفتيلة الصفراء ، أو كشفق الشـــمس الأصفر المشوب بحمرة .

وشاعر آخر يراها صفراء تشع أشعة ذهبية صفراء على المجلـــس يقول [١] :

وصـــفراءُ تنشـــر مـــن رأســـها

ذوائـــب صـــفرٍ علـــى المجلـــسِ

الأصفر المشوب بحمرة .

---

[١] - الأحاجى والألغاز الأدبية ، ص ٢٥١ .

كما نجد بعض الشعراء **يقدمون البكاء والدمع** على غيرهـا مـن الصفات الأخرى .

فأسامة بن منقذ يصورها باكيةً فى جوف الليل المظلم وهى لا تبكـى إلاّ من نارٍ تدبّ فى أحشائها فتتساقط دموعها جمراً ، وربما تبكى لصدٍّ حبيب أو لجمع شمل قد تشتت ، يقول [١] :

ومفـردة تبكـى إذا جـنَّ ليلهـا
خفافاً وفى أحشائها النّارُ واللَّـذْع

تذوب جوًى ، إما لصدٍّ وهجـرة
وإمّا لبينٍ ، مـا لتشـتيته جمـعُ

فلم أر جمراً ذائبـا غيـر دمعهـا
ولا جسم باكٍ قبلهـا كلُّـه دَمْـعُ

أما الشاعر أبو محمد الدُّوغيّ ، فيجعل دموع الشـمعة تجـرى مـن مراكبها الصفراء التى رُكبت فيها ، فتظهر هذه الدموع للنـاظرين أو ربمـا تتساقط على رءوسهم فيلمسوا تضحيتها فهى تحترق كى تجعل الليل لهم نهاراً يقول فى خماسيّة : [٢]

وباكيـاتٌ قصـَـرَ الأعمـار
بـأدمُعٍ صُـفْرٍ لهـا جَـوَارِ
إذا امتطـت مراكـبَ النُّضَـار
وبـرزت لأعـين النظّـار
عـاد ظـلامُ الليـل كالنهـار

---

[١] - ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠٤ .

[٢] - دمية القصر للباخرزى ، جـ٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

أما الشاعر مطفّر بن جماعة بن سامى (ت ٦٠٥) فيرى أنه بـرغم بكاء الشمعة وشكواها إلاّ أن لسانها لم يتوقف عن الإضاءة ، حتى كأنّه دائمـا كسنان الذهب لرمح من اللجين ، وهذه الصورة لا تكون إلاّ فى حال إشـعال الشمعة . يقول : [1]

جـادت بجسـم لسـانه ذرِبُ
تَبكى وتشـكو الهـوى وتـلتهـبُ
كأنّهـا فـى يمـين حَاملهـا
رُمْـح لجـين سـنانه ذَهَـبُ

فوائد الشمع :

وبعد أن انتهينا من وصف الشمعة ورأينا كيف نعتها الشعراء بنعوت مختلفة تدل على مدى القرب منها والتأمل فيها . ننتقل إلى ذكر بعض فوائدها فطبيعى أن يكون أول استخدام لها **فى الإضاءة** ، وهذا الاستخدام بالذات هـو الذى جعلها مَدْعاةً للتأمل من الشعراء وقد ورد فى رسوم دار الخلافة ما يشير إلى هذا الاستخدام " فعندما أراد فرج بن زياد – الذى كان يتـولى الضـياع الخاصة على عهد المأمون – أن يغادر بيت المخلد بن إبان الكاتب أمر المخلد الغلمان بحمل الشموع بين يديه إلى داره بعد أن جهد به فى أن يركـب فلـم يفعل " [2] وبعد أن عاد المخلد إلى بيته فى موقف آخر قال لغلامه : " يا طريف : قرّب الشمعة منى ، فقرّبتها إليه " [3] .

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ٥ / ٥٠٦ .
[2] – رسوم دار الخلافة : لأبى الحسين هلال بن المحسن الصابئ ، ص ٤٣ ، دار الرائد العربى - بيروت - لبنان .
[3] – نفس الصحيفة .

وهذا يدل على أن الشمعة كانت تستخدم للإضاءة فى داخل البيت وخارجه فى الليل .

ولهذا وجدنا الشعراء يعبرون عن هذا الاستخدام للشمعة . فأبو إسحاق الصابئ لا يجد وسيلة للإضاءة حتى يصل إلى حبيبه فى ليلة مدجنة شديدة الظلمة غير شمعة هيفاء دقيقة الخَصْر يقول : [1]

وليلة من محاق الشـــهر مدجنـــةٌ
لا النجم يهدى السرى فيها ولا القمـــرُ
كلفت نفسى بها الإدلاج ممتطيـــاً
غرماً هو الصارم الصمصامة الـــذكرُ
إلى حبيب له فى القلـــب منزلـــة
مـــا حلهـــا قبلـــه ســـمع ولا بصـــرُ
ولا دليل ســـوى هيفـــاء مخطفـــة
تهدى الركاب وجـــنح الليـــل معتكـــرُ
غصن من الذهب الإبريز أثمر فى
أعـــلاه ياقوتـــةٌ صـــفراء تســـتعرُ
نأتيك ليلاً كما يأتى المريب فـــإن
لاح الصباح طواهـــا دونـــك الحـــذر

أما الميكالى فلا يقطع ظلام الليل الدامس إلاّ بشمعة كعمود التبر الذى يشق جلابيب الظلام ، ثم يتأمل الشمعة وهو يسير بها فينعتها بنعوتها المختلفة. يقول : [2]

---

[1] - يتيمة الدهر ، جـ٢ / ٢٦٧ .

[2] - زهر الآداب ، جـ٣ / ٧٤٧ ، ديوان الميكالى ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

وليلٍ كلون الهَجْر أو ظلمة الحِبْـــر
نصبنا لداجيـــه عمـــوداً مـــن التبـــرِ
يشـــقُّ جلاليـــب الـــدجى فكأنمَـــا
ترى بين أيدينا عمـــوداً مـــن الفجـــرِ
يحـــاكى رُواءَ العاشـــقين بلونـــه
وذوب حشاه والدّموعِ التـــى تجـــرى
خلا أن جارى الدمع ينحله قـــوى
وعهدى بدمعِ العين ينحلُ إذ يجـــرى
تبدّى لنا كالغصـــن قـــدّاً وفوقـــه
شعاعٌ كأنّـــا منـــه فـــى ليلـــة القـــدرِ
تحمّل نـــوراً حتفـــه فيـــه كـــامن
وفيه حياة الأنس واللهو لـــو يـــدرى
تراه يدّبُ الدهرَ فى برى جســـمه
وقد كان أولى أن يـــريش ولا يبـــرى
إذا ما علتـــه علّـــةٌ جُـــذَّ رأســـه
فيختال فى ثوب جديـــد مـــن العمـــر

وشاعر آخر هو السّرى الرفاء يُعد شمعة لغسق الليل حيث لا تتضـــح معالم الطرق والدروب ، يقول [١] :

[١] – نزهة الأبصار فى محاسن الأشعار للعنابى ، ص ٤٨١ ، ديوان السرّى الرفاء ، ٣١٥

أعدَدْت للّيــل ، إذا الليــل غَسَــقْ
وقيَّدَ الألحاظَ مــن دون الطُّــرُقْ
أغصانَ تبْرٍ عُرِّيَتْ مــن الــورق
ثمارهــا مثــلُ مَصَــابيح الأُفُــقْ
يُغنى النّدامى ضَوؤها عن الفَلَــق
شِفاؤها إن مرضت ضربُ العُنُــقْ

كما يبرز أبو طالب المأمونى هذا الاستخدام فيقول [١] .

وطاعنـــة جلبـــاب كـــلّ دجنّـــة
بماضى سنانٍ فـــى ذؤابـــة ذابـــلِ
تجود على أهــل النــدى بنفســها
وما فوق بذل النفس جــود لبـــاذلِ
ويقرى عيون الناظرين ضــياؤها
وقد قُيِّــدت ألحاظُهــا بالأصـــائلِ

وهكذا نجد أن الشمعة كانت وسيلة من وسائل الإضاءة فـــى الليــل ، ولكنها لم تكن الوسيلة الوحيدة ، حيث كانوا يستخدمون مسارج النفط ، يقــول السرّى الرفاء : فى وصف سراج [٢] :

---

[١] – يتيمة الدهر ، جـ٤ ، ص ١٧٣ .
[٢] – ديوان السرّى الرفاء ، ص ١٧٠ ، ويقصد أنّ شعلتها تسبح فى الزيت .

وحيَّـــةٍ فـــى رأســـها دُرَّةٌ
تسبح فى بحـرٍ قصـير المـدى
وإن هى غابت فـالعمى ظـاهرٌ
وإن بَـدَت بـان طريـقُ الهُـدى

ونظراً لأهمية الشمعة فى الإضاءة ، فكثيراً ما كانت تقدَّم **كهديّة قيِّمة** للغير . أى أن الشمعة كانت تؤدى دَوْراً اجتماعياً حضارياً . والهدايا كما نعمل كم تؤلف من قلوب وتغيِّر من مواقف يقول بعض الشعراء [1] :

إن الهديّـــة حُلـــوةٌ
كالسّـحر تجتلـبُ القُلوبَـا
تُـدْنى البغـيض مـن الهـوى
حتـىَّ تُصـيِّره قريبـا
وتُعيـدُ مُضـطغن العـدا
وة بعـد نُفْرتـهِ حبيبـا

ومن هنا تلقفها الشعراء فجعلوها عموداً من التبر فى شعر التّهـادى ، لأنها ظَلّتْ خِلاً وفيًّا للشعراء فى ليلهم الداجى ومع لحظات إبداعهم القلقـة ، فالشاعر فرد من أفراد المجتمع ، عليه دور اجتماعى لابد أن يؤديه ، ولهـذا وجدناه إما أن يَهْدى أو يُهْدى إليه ، فكانت الشمعة من الأشياء الثمينـة التـى يقدمها الشاعر للغيْر ، ويفرح بها إن قدِّمت له من الغير .

[1] - عيون الأخبار : لابن قتيبة ، جـ٣ / ٤٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

فالصنوبرى لم يجد أفضل من الشمع يقدمه كهديّة لرجلٍ يعزّه ويقدّره يقول فى هديّة شمع أهداها [1] :

يـــا أبـــا حفـــصٍ قـــد اختـــر
تُ فلـــــــم آلُ اختيــــــــارا
وتأملـــــــــت الهـــــــــديا
تِ كبـــــــارا وصـــــــغارا
لـــــم أجـــــد شـــــيئا لشـــــىء
يجعـــــل الليـــــلَ نهـــــارا
فتأمـــــل مـــــن قريـــــب
شـــــجراً يحمـــــلُ نـــــارا
واكسُـــــها منـــــك قبـــــولا
تكـــــسُ مُهـــــديها فخـــــارا

أما كُشاجم صديق الصنوبرى يقدم هدية هو الآخر إلى بعض الملـوك هذه الهدية عبارة عن شمعةٍ ، فيهدى الضياءَ إلى من أفعاله مثـل الضــياء . يقول [2] :

وصُفرٍ من بنات النحـلِ تُكْسـى
بواطنهـــا وأظهرهـــا عـــوارى
عذارى يفتضضن مـــن الأعـــالى
إذا افتضت من السّـفلِ العـذارى

---

[1] - ديوان الصنوبرى ، ص ١٥ .

[2] - ديوان كُشاجم ، ص ٢٠٣ ، زهر الآداب ، المجلد الثالث ، جـ٣ / ٧٤٨ ، والأبيـات منسوبة إلى الصنوبرى أيضاً فى ديوانه ، ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

وليست تنـتج الأضـواءَ حتَّـى
تُلقَّـح فـي ذوائبهـا بنـارِ
كواكـب لَسْـنَ عنـك بـآفلات
إذا مـا أشـرقت شَـمْسُ العُقـارِ
بعثـت بهـا إلـى ملـكٍ كـريمٍ
شريفِ الأصـل محمـود النِّجـارِ
فأهديتُ الضّياءَ بهـا إلـى مـن
مَحَاسِـنَهُ تُضِـئُ لكـل سـارى

أما السَّرى الرَّفاء فيصف شمعاً أهدى إليه ، معبراً عن فرحه بهذا الشمع ، وينعته بالعديد من النعوت المختلفة يقول : [1]

جـاءت هـديتك التـى
هـى شمسـنا بعـدَ الغيـابِ
حَلَّيْـتَ أفْـقَ مَحلِّنـا
منهـا بـنَجْم أو شـهابِ
بسـليلة النَّحـلِ الكريـ
ـم ، شـقيقةِ النُّطـفِ العـذاب [1]
صُـفرِ الجُسـومِ ، كأنَّمـا
صِـيغَتْ مـن الـذَّهَبِ المُـذابِ

[1] - ديوان السَّرّى الرَّفاء ، ص ٦٧ .

فكـــــأنَّ مـــــاءَ الحُسْــــنِ ، إذ

شَـــرِقَتْ بـــه ، مـــاءُ الشـــبّابِ

فـــــإذا ذَكَـــــتْ نيرانُهـــــا

لـــيلا ، وجَـــدَّت فـــى التهـــابِ

أنســـــاكَ طِيـــــبُ دُخانهــــا

طيـــب العبيـــر ، أو المَـــلابِ[1]

وإذا عَرَتْهـــــا مَرْضـــــــةٌ

فَشِـــفَاؤها ضَـــربُ الرِّقـــابِ

تَنْثـــى الـــدُجى عـــن لونِـــه

فيعـــودُ مُبْـــيَضَّ الحجـــابِ

لـــــولا غرائـــــبُ فِعلِهــــا

لارْتَـــدَّ فـــى لـــونِ الغُـــرابِ

ونجده أيضا يُعبر لصديق له عن فرحه بهديته التى أرسلها له فى عيد الميلاد والتى تتمثل فى قباب الشمع . وهى هدية لاقت صدى طيِّبا عند الشاعر فنراه يقول :[2]

بَعَثْتَ فـــى المـــيلادِ لـــى بِدعـــةً

تحـــارُ فيهـــا عـــينُ رائيهـــا

هَدِيَّـــةً لـــم أدْرِ مِـــنْ ظَرفِهـــا

أعجَبُ أم مـــن ظَـــرفِ مُهـــدِيها

---

[1] - الملاب : طيب يشبه الزعفران .

[2] - .ديوان السّرى الرّفاء ، ص ٤٥٩ .

قبــابَ شَــمعٍ يَتَحــاَمَى الــدُّجَى
مَجلِسَـــــنا عنــــدَ تَلاليهـــــا
كأنَّهـــا أغصــــانُ تِبـــرٍ بَـــدَتَ
زهــــرةُ نــــارٍ فـــى أعاليهـــا
أرواحُهـــا تأكــــلُ أجســــامَها
عَمْــداً وتَفْنـــىَ حِـــين تُفْنيهـــا
سَـــــيْفُها يَضــــربُ أعناقَهــــا
وَهْـــوَ بــــذاك الفِعـــلِ يُحييهـــا

أما سبط التعاويذى فيصور كما لو أن الشمع كان عزيــزاً ، فعنــدما جاءته شمعةٌ – وليس شمعا – من بخيلٍ ، يتصور أنه كان يحتــرق معهـــا ، يقول [١] :

وباخـــلٍ قـــدَّم لـــى شـــمعةً
وحالـــه أحـــرقُ مـــن حالِهـــا
فما جـــرت مـــن عينهـــا دمعـــةٌ
إلاَّ ومــــن عينيــــه أمثالُهــــا

ومن هنا اتضح كيف صوّر لنا الشعراء الشمع هديّة قيمة عندما يتداول بين أفراد المجتمع . كما اتضح أنه كان يقدّم فى الاحتفالات والمناسبات السارة كأعياد الميلاد بجانب استخدامه فى الإضاءة ولهذا وجدنا أبا الخسن على بـــن الفرات وزير المقتدر عندما ولى الوزارة أكثر من استخدام الشمع ابتهاجاً بهذه

[١] – ديوان سبط التعاويذى ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

المناسبة ، بل ويهدى كل من يدخل داره ويخرج منها ليلاً شـمعة يقـول آدم متز : [١] " ولمّا خُلِعَ على هذا الوزير خلع الوزارة زاد فى ذلـك اليـوم ثمـن الشمع قيراطاً فى كل مَنٍّ وزاد سعر القراطيس لكثرة استعماله لهما ، ولأنـه كان من رسمه ألا يخرج أحدا من داره وقت العشاء إلاّ ومعه شـمعة منويـة ودرج منصورى ، وقد سُقِىَ فى داره فى ذلك اليوم والليلة أربعون ألف رطل ثلجاً ، وجرى رسمه مدة وزارته أن يعطى كلّ من يخـرج مـن داره عنـد اصفرار الشمس شمعة " ، فنلاحظ من النص أنه استخدم الشمع بكثرة بالغـة مما أدى إلى ارتفاع سعره .

ولا تتوقف فوائد الشمع عند الإضاءة أو التهادى بها فقط بل كثيراً ما **تستعمل فى الزينة** فأحياناً توضع فى طسوت نحاسية فتهتز فيهـا وتتمايـل فتعطى بجانب إضاءتها منظراً جميلاً .

يقول أبو طالب المأمونى فى طست الشمع : [٢]

وحديقـة تهتـز فيهـا دوحـةٌ
لـم ينمهـا تـرب ولا أمطـارُ
فصعيدها صفر ونامى غصنها
شـمعٌ ومـا قـد أثمرتـهُ نـارُ

والأجمل من هذا أن توضع هذه الشموع فى البرك الصـناعية التـى كانوا يتفننون فيها ، فيخرج عمود النار من وسط الماء ، يصور هذا أبو الفتح بن كشاجم يقول :

---

١ - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جـ١ / ٨٢ .
٢ - يتيمة الدهر ، جـ٤ / ١٧٣ .

بركـــة صـــفر عمودهـــا شـــمعٌ
تفيض ناراً مـــن موضـــع المـــاء
تبكى إذا مـــا المقـــص خمّشـــها
فـــرط حيـــاء مـــن الأخـــلاء
كأنّهـــا عاشـــق مخايلـــه
فيـــه بـــوادٍ لمقلـــة الرائـــى
صـــفرة لـــونٍ وذوب معتبـــةٍ
ودمـــع حـــزنٍ ، ونـــار أحشـــاء

أما أبو الفتح أحمد بن يوسف الكاتب فيصور اهتزازها وخيلاءها فوق صفحة الماء ، بالبدر الذى يتحرك مع الفلك يقول : [1]

وشـــمعةٌ وســـط أيمـــن البـــرك
تميس فى المـــاء مـــيس مرتبـــكِ
كأنّها البدر فـــى الســـماء ســـرى
فحـــار فـــى أوجـــه مـــن الفلـــك

وكثيرا ما كانت تستخدم الشمعة كـــأداة **من أدوات اللهو والقصف والشراب** ، حيث كان يستعين بها السكارى فى الليل لتضىء المكـــان الـــذى يشربون فيه ولا سيما الأديرة .

[1] - يتيمة الدهر ، جـ٤ / ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

وهذا السَّرى الرفاء يصف لنا ليلة سَكَرَ فيها بقطربل وكيف اســتعان هو وندماؤه بالشمع لإضاءة الدير ، يقول : [1]

كســـتك الشــــبيبة رَيْعانَهـــــا
وأهـــدت لـــك الـــرَّاحُ رَيحانَهـــا
فـــدُم للنَّـــديم علـــى عهـــده
وغـــادِ المُـــدامَ ونُـــدْمانَها [2]
فقد خلــع الأُفــقُ ثــوب الــدجى
كمـــا نضــت البِــيضُ أجفانَهـــا [3]
وســـاق يـــواجهنى وجهـــه
فتجعلـــه العـــين بســـتانها
يُتــوِّجُ بالكـــأسِ كَــفَّ النــديم
إذا نَظَّـــم المـــاءُ تيجانَهـــا
فطـــوراً يُوشِّـــح ياقوتهـــا
وطـــوراً يُرصِّـــعُ عِقْيانَهـــا [4]
رَمَيْـــتُ بأفراســـها حَلبـــة
مـــن اللَّهـــو تُـــرْهِجُ مَيـــدانَها [5]
وديـــرٍ شُـــغِفتُ بغزلانـــه
فكـــدتُ أُقَبِّـــل صُـــلبانَها

[1] – يتيمة الدهر ، جـ٢ ، ص ١٧٢ ، الديوان ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .
[2] – غاد : باكر .
[3] – البيض : السيوف . الأجفان مفردها جَفْن : غمد السيف .
[4] – العقيان : الذهب الخالص .
[5] – تُرْهِجُ : تثير الغبار .

فلمّـــا دَجَـــى اللّيـــلُ فرَّحْتـــهُ
بـــــرُوح تُحيِّـــف جُثمانَهـــــا
بشَـــمْعٍ أُعِيـــرَ قُـــدودَ الرِّمـــاح
وسُـــــرْجٍ ذُراهـــا وألوانَهـــــا
غصونٌ من التِّبـــرِ قـــد أزْهَـــرَتْ
لهيبـــــاً يُـــــزَيِّنُ أفنَانَهـــــا
فيا حُسنَ أرواحِهـــا فـــى الـــدُّجى
وقـــد أكلـــت فيـــه أبـــدانَها
سَـــــكِرتُ بِقُطْرُبُــــلِ ليلـــةً
لهـــوتَ فغازلـــت غِزلانهـــا
وأىُّ ليـــالى الهـــوَى أحســـنت
إلـــىّ فـــأنكرْتُ إحســـانَها

وهذا شاعر آخر يسلِّط شعاع الشمعة الأصفر على كئوس الشراب مع لون الشراب ذاته فتتداخل الألوان حتى تصبح وكأنها ألوان الطيف ، يقول [1]

وصـــفراءُ تنشـــر مـــن رأسـها
ذوائـــب صـــفرٍ علـــى المجلـس
تُعِـــمُّ النـــدامى بهـــا كســـوةً
فكـــلُّ نـــديم بهـــا مكتســـى
تمـــازج مشـــروبهم رقـــةً
وتلقـــى شـــعاعاً علـــى الأكْـؤس
تريـــك إذا حـــدَّقت عينهـــا
عيونـــاً مـــن الزَّهـــرِ والنـــرجسِ

[1] - الأحاجى والألغاز الأدبية ، ص ٢٥١ .

وشاعر آخر يصنع جواً بهيجاً عناصره الـرقص والكـأس والغنـاء والشمع مجَسداً كل هذه العناصر ، يقول [1] :

أطربنـا العـود إلـى أن غـدا
مقامنـا يـرقص مـع صـحبه
فشـمعُنا قـام علـى سـاقه
وكأسـنا دار علـى كعبـه

أما السّرى الرّفاء فينظم الشمع فى منظومة من عدة عناصر اجتمعت فكوّنت ليلة حسنة . يقول وهو يمدح الوزير أبا محمـد الحسـن المهلبـى ، ويصف ليلة شَربَ فيها على برك وفوّارات ، فلمّا أقبل الليل رُكّزت له رماح عليها الشمع فأضاء الموضع وحسن [2] :

فَضَلَتْ ليالى القَصْفِ ليلتك التـى
هى فى المحاسن غـادةٌ حَسـناءُ
رَقّتْ غَيَاهبُهـا ، فهـنَّ غلائـلُ
وَسَخَتْ جنائبهـا ، فهـنَّ رَخـاءُ
وَصَفَتْ لك اللذّاتُ بـين غَرائـبِ
للعـيْش ، فـى أفيـائهنَّ صَـفَاءُ
بِركٌ تحلَّـتْ بالكواكـب أرضُـها
فأرَتْك وَجْهَ الأرضِ ، وهو سـماءُ
رُفِعَتْ إلـى الجـوزاء فوَّاراتُهـا
عُمُدا ، يُصابُ بصَوْبها الجوزاءُ [3]

---

[1] – خزانة الأدب : ابن حجة الحموى ، جـ٢ / ١٧٩ .
[2] – ديوان السّرى الرّفاء ، ص ١٦ ، ١٧ .
[3] – الصَوْب : المطر .

كادَتْ تردُّ علــى الحَيَــا أعْطَافَــه
لــو لــم يُمــلْ أعَطَــافَهُنَّ حيــاءُ
مثلُ القَنَــا الخَطِّــيِّ قُــوَّمَ مَيلُــهُ
وجَرَتْ عليــه الفِضَّــةُ البيضــاءُ
حتى إذا انتشرت جلابيبُ الــدُّجى
وتكاثفَــتْ مِــن دونهــا الظَّلمــاءُ
فرَّجتَهــا بصــــحائح إن تعتلــلْ
فلهنَّ من ضَرْبِ الرِّقــاب شــفاءُ
شمعاً حملتَ على الرِّماح رماحَــه
فقُــدودُهُنَّ ومــا حملــن سَــواءُ
لقِى النجومَ وقــد طلعــن بمثلهــا
وأعاد جنحَ الليلِ ، وهــو ضَــحاءُ
يا سيِّدَ الوزراء نلْتَ مِــن العُــلا
والمجد مــا يعيــا بــه الــوزراءُ
هى ليلةٌ ، لا زلْتَ تَلْــبَسُ مثلهــا
فى نعمةٍ وُصِــلَتْ بهــا السَّــرَّاءُ
أغنيتَ قوما ، حين هــزَّ غناؤهــا
عطفَيك ، رُبَّ غِنىً حَــدَاه غنــاءُ
وقطعتَها ، والليلُ يصــدعُ قلبَــه
ضِــدان : نــارٌ تســتنيرُ ومــاءُ
نَعِمَ البريَّةُ فــى بقائــك ، فلتَــدم
لهــم بطــولِ بقائــك النَّعمــاءُ

وهكذا يتضح لنا من كل النماذج السابقة أن الشمعة كانــت تســتخدم لفوائد متعددة ، كالإضاءة والهدايا ، والزينة ، ومع اللهو والقصف والشراب .

الشمعة والألغاز :

الألغاز من فنون الشعر التى استحدثت فى العصر العباســى ، حيــث اتسعت الثقافة ، وتنوعت مصادرها ، وارتقى العقل العربى ، وتعددت الفرق الكلامية التى قامت على الجدل والأحاجى والمناظرات ، كل هذا شكّل أرضاً صالحة لنشأة الألغاز ، ليس فى الشعر فقط ولكن فى معظم مجالات المعرفــة فهناك ألغاز فى النحو والإعراب [١] ، وهناك ألغاز فى الفقه والفرائض [٢] .

والشعر فى النهاية مرآة لهذه الحياة العقلية الصاخبة فانتقلت الألغــاز إلى الشعر حتى أصبحت غرضاً من أغراضه المحدثة .

واللُّغز : مَيْلُك بالشىء عن وجهه ، والألغوزة بالضم : ما يُعَمَّى به، الجمع ألغاز ، وألغز كلامه : عَمَّى مراده [٣] . فالألغــاز تــدور حــول عــدم التصريح بالشىء مع إعطاء بعض السمات والدلالات للمتلقى ، كى يتعــرّف عليه .

والشمعة كغيرها من أشياء كثيرة . كانت مصدراً لألغاز الشــعراء [٤] ولكنّها بقيت لغزاً قريب الحل نظراً لما تحمله من دلالات تجسّد فى النفــوس مثلاً حيًّا للتضحية ، فيكفى أنها تحترق لتضىء للآخرين .

---

١ – مثل : توجيه ملغزة الإعراب للرمانى ، والألغاز النحوية لابن هشام .

٢ – انظر مقامات الحريرى ، وبالذات : الطيِّبية ، المعرية ، الفرضية النصيبية ، وغيرها من المقامات ، وانظر الأحاجى والألغاز الأدبية : عبــد الحــى كمــال ، ص ٦٥ ، مطبوعات نادى الطائف الأدبى ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـــ .

٣ – القاموس المحيط ، مادة (لغز) .

٤ – فى كتاب الأحاجى والألغاز الأدبية ، جمع المؤلف أكثر من مائة شىء دارت حولهــا ألغاز شعرية .

والألغاز التى دارت حول الشمعة لابد أنها تعتمد على أوصاف الشمعة التى ذكرناها ، بحيث إذا ذكرت هذه الأوصاف حتى ولو بطريقة مُعَمَّاة استطاع المتلقى أن يتعرف على الشمعة ، من هذه الأوصاف : لونها الأصفر، دقتها واعتدالها ، دموعها التى تعطيها القوة ، كاسية عارية ، حياتها بقطع رأسها .

والشاعر فى العادة لا يعطى هذه السمات مرة واحدة ولكنه يتدرج مع المتلقى ، فكل بيت يحمل صفة أو أكثر حتى يتضح الدال فى النهاية .

فالميكالى يلغز ويسأل عن جسم دقيق كالشبح ، يعجب كل من ينظر إليه ، أصفر اللون ، يبكى طوال الليل بجفن لا يعرف النوم لنار تحرق أحشاءه . يقول [1] :

ما شبح يعجب من رآه
صفرته تخبر عن ضناه
يبكى بجفن غائب كراه
أدمُعُه تزيد فى قواه
مُعذَّب الليل إلى ضحاه
تلهب نارُ الشَّوق فى حشاه

أما الشاعر أبو محمد عبد الله الخشاب فيلغز عن شىء أصفر اللون صفرته ليست عرضاً لمرض ، لأنه لا يمرض لأن أصله فيه شفاء للناس بالإضافة إلى أنها عارية كاسية فى نفس الوقت . يقول : [2]

[1] – ديوان الميكالى ، ص ٢٢٧ .
[2] – معجم الأدباء ، جـ٣ / ٤٤٦ .

صَـــفْراءُ لا مـــن ســـقم مسَّـــها

كيـــف وكانـــت أمّهـــا الشـــافيةْ

عريانـــةٌ ، باطنهـــا مُكتســـى

فأعجـــب لهـــا كاســـيةً عاريـــةً

أما أبو الحسن بن أبى ياس ، فيلغز عن شىء ذى منزلة لأنه لا يكون فى العادة إلاّ عند الملوك ومن اقترب منهم ، دقيقة الصنع ، زيادة نورها فيـــه نقصان عمرها ، تبكى ليضحك ظلام الليل ، لا تستيقظ إلاّ بقـــص شـــعرها . يقول [1] : وهيفـــاءُ مـــن نـــدماء الملـــوكِ

تزيـــد فيـــنقص مـــن قـــدرها

إذا ضحكت جنح داجـــى الظـــلام

بكت فجرى الـــدمع مـــن نحرهـــا

فـــإن نعســـت للكـــرى نعســـةً

فإيقاظهـــا القـــصُّ مـــن شـــعرها

ويأتى الوأواء الدمشقى فيلغز عن شىء من ندماء الملـــوك . أصـــفر كالعاشق ، تكيد الظلام ويكيدها ، فيفنيان سويا . يقول [2] :

وهيفـــاءُ مـــن نُـــدَماء الملـــو

كِ صـــفراء كالعاشـــق المُـــدْنفِ

تكيـــد الظـــلام كمـــا كادهـــا

فتفنـــى وتفنيـــه فـــى مَوْقـــفِ

---

[1] - يتيمة الدهر ، جـــ١ / ٤٢٥ .

[2] - ديوان الوأواء الدمشقى ، ص ١٤٩ ، والأبيات منسوبة إلى كشـــاجم فـــى ديوانـــه ، ص ٤٥٧ .

ثم يقدمها الوأواء فى زى آخر فيلغز عن شىء دقيق الخصر ، يظهر فى الليل كالسهم المضىء ، تعاقب نفسها بنفسها ، صحتها فى قطع رأسها ومرضها فى تركه صحيحاً .

يقول الوأواء [1] :

ومخطوفةِ الخصرِ لمّا بدت
لدى الليل عاينتُ سهما يُضى
تعاقبُ من نفسها نفسها
فتقضى الأمُورَ كما تنقضى
وتمرض إن تركوا رأسها
وإن قطعوا الرأس لم تمرضِ

وبعض الشعراء يلغز فيبدأ بالدموع المتساقطة والتى هى سبب القوة ، ولا تحيا إلا بقطع رأسها . يقول [2] :

وباكية على الدجى أسفاً
يقطر منها أدْمعٌ صُفر
تحيا إذا ما رأسها قطعت
وهى بالليل أنجم صفرُ

أما السّرى الرفاء فيلغز متلاعباً بالأوصاف والصفات فهو يسأل عن باكية ، بصيرة ، ضريرة ، إذا أردنا أن نصلحها فلابد من إفسادها يقول :

---

[1] - ديوان الوأواء ، ص ١٣٧ .

[2] - نزهة الأبصار فى محاسن الأشعار للعنابى ، ص ٤٨١ .

وباكيــــــةٍ ليلهـــــا كُلَّـــــهُ
تحـــاكي الصـــباحَ بمصـــباحِها
بصـــــيرةُ ليـــــلٍ ، ولكنَّهـــــا
ضـــريرتهُ عنـــد إصـــلاحها
نجـــزُّ لإصـــلاحها رأســـها
فإفســـادها عنـــد إصـــلاحها[1]

وهكذا أصبحت الشمعة موضوعاً خصباً لـدى الشـعراء فتناولوهـا بالوصف والتدقيق والتأمل ، ووصلوا بها إلى أن جعلوها لغزاً يشغل قـرائح المتلقين ويهز مشاعرهم أيضاً .

[1] - ديوان السّري الرّفاء ، ص ١٢٩ .

الفصل الثانى

الشمعة فى وجدان الشعراء

لم تتوقف أهمية الشمعة على أهميتها المادية فقط ، كالتى ذكرناها فى الإضاءة والتهادى والزينة والشراب وغيرها ، بل تخطت هـذا إلـى جانـب معنوى هو الأهم عند الشعراء . فعندما تأملوها وجدوها تحيا وتحترق وتموت، تصفرّ وتذبل ومع هذا تعطى وتضىء وكأنّها جسد حىّ تدب فيه الحياة .

ومن هنا وجدنا الشعراء يخلعون عليها مشاعرهم والتى عادة ما تكون مؤلمة حزينة ، إنهم يعتبرونها عنصراً حياً تشعر بما يشعرون وتحـس بمـا يحسون فينتابها ما ينتابهم فتبكى وتمرض فى صمت وبدون ألم ومع هذا تظهر فى شموخ وكبرياء . إنها علاقة وطيدة كتلك التـى ارتـبط فيهـا الشـعراء الرومانسيون بعناصر الطبيعة فى العصر الحديث .

فإذا توقفنا مع الشعراء الذين أسقطوا مشاعرهم على الشمعة ، لوجدنا السّرى الرفاء (ت ٣٦٢) الشاعر المشهور الذى كان يَرْفو ويطرز ولكن مهنته من الرفو لم توفر له حياة كريمة ولا استطاع بشعره أن يرتفع إلى حياة أرقى فظل يشتكى الفقر من جهة ويشمخ بارتفاع كعبه فى الشعر من ناحية أخرى [١] يقول مثلاً مصوراً فقره الشديد [٢] :

لى منزل كوجار الضّـبِّ أنزلـه
ضنك ، تقارب قطراه فقد ضـاقا
أراه قالب جسـمى حـين أدخلـه
فما أمُـدُّ بـه رجـلا ولا سـاقا
فلست أعتـدُّه رزقـا أسـرُّ بـه
وهل تُعَدُّ سُجون النـاس أرزاقـا
أناشـد الغيـثَ أن يجتـازه أبـداً
ولامع البرق أن يغشـاه إحراقـا

---

[١] - انظر : معجم الأدباء ، جـ٣ / ٣٥٩ وما بعدها .

[٢] - ديوان السّرى الرفاء : ص ٣٣٧ .

ويقول فى قصيدة أخرى مفتخراً بشعره مدعيا أن الغير يتكسب بـه – يقصد الخالدين عندما اتهمها بسرقة شعره – وهو لم يحصل على شىء من وراء هذا الشعر . يقول [1] :

أُسَـلِّمُ للأيّـام أم لا أُسَـلِّم
وأحمـلُ ظُلْـمَ الـدهر أم أتظلَّـمُ

بكيت على شِعرٍ أُصيبَ كما بكـى
على مالـكٍ لمّـا أُصـيبَ مُـتمِّم

تعزَّيْتُ عن نيل الثـراءِ بفضـله
وما مُعْدِماً ، أثرى من الفضلِ مُعْدِمُ

أجانـب فيـه لـذَّتى ومكاسـبى
وأهجر فيه النَّـومَ والنـاسُ نُـوَّمُ

إذا ما المعانى أومضت لى بُروقُها
وساعدها وَشْـىُ الكَـلامِ المُنَمـنمُ

رأيتُ التهاب الحَلْى فى جيدِ غادةٍ
ترائبهـا مـن تحتـه تتبسَّـمُ

نظام من السحر الحـلال مُخيَّـلٌ
لسـامعه أنَّ الكواكـبَ تُـنْظَمُ

تحلَّى به قـوم سِـواىَ ، فكـذَّبوا
وهل يلدُ الشُّهبَ الملامـح أدْهَـمُ

أيُدْفَع عن حَلْىِ البلاغـة مُعْـربٌ
ويَرفُلُ فى وَشْى الفصاحَةِ أعْجَـمُ

---

[1] – الديوان ؛ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

رجل هذا حاله ، فقر مادى وتدنٍ اجتماعى من ناحية وشموخ شعرى من ناحية أخرى ، ماذا يقول هذا الرجل عندما يصف الشمعة [1] . لابــد أنــه سيكسبها سمات تعبر عن حالته النفسية والتى هى انعكاس لظرفه الاجتماعى . يقول فى إحدى مقطوعاته التى يصف فيها شمعة [2] :

وشمعةٍ فــى يــد الغــلام حكــت
عُنــقَ ظلــيم بغيــرِ منقــار

تبكى ، إذا نارُ شوقها اضــطرمت
بدمع تبــرٍ مــن الأســى جــارى

كأنّهــا نخلــةٌ بــلا سَــعَف
تحمــلُ أتْرجّــةً مــن النــار

فلماذا تخيّر السّرىّ الرفاء لشمعته مماثلة عنق الظليم الذى بغير منقار أو النخلة التى بغير سَعَفٍ ؛ إنه الشموخ المعنوى الذى يحس به السّرىّ وأراد أن يخلعه على شمعته ، فإن من ينظر إلى عنق النعامة يلاحظ كيف يُرفَع فى كبرياء وشمم وكذلك النخلة التى تضرب جذورها فى الأرض وترتفع شامخة إلى السماء ، حتى الدموع التى تسقطها هذه الشمعة ليست دموعا عادية ولكنها من التبر الأصفر ، فالشموخ ليس شموخ الشمعة على الحقيقة ولكنه الشــموخ الذى يحس به السّرىّ ويريد أن يعترف المجتمع به ، وقد ساعده واقع الشمعة

---

[1] – وصف السّرى الرفاء الشمعة أكثر من سبع مرات ، انظر الديوان الصــفحات ، ١٦ ، ١٧ ، ٦٧ ، ١٤٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٣١٥ ، ٣٨٤ ، ٤٥٢ .

[2] – الديوان ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، والظليم ذكر النعامة .

على ذلك . يقول أحد الدارسين محللا هذه الصورة [1] : " وقد أضفى الشـــاعر من خلال دلالات " الإشراق " : " نار " ، " اضطرمت " ، " تبر " ، " أترجّة " مناخ إضاءة وتوهج يتناسب مع واقع الشمعة المضيء .

وإشارة الشاعر إلى " الظليم " ، وهو : " الذكر من النعـــام " ، وإلـــى النخلة فى تشبيه " الشمعة " بهما إيحاء بحالة الشموخ " إحساساً يتململــل فـــى أعماق الشاعر ويتمنى تحقيقه وسط مناخ من " الإحباط " و " الدونية " نتيجـــة للفقر ، ويأتى ذكر " الأترجة " التى تعلو " النخلـــة " تأكيـــدا علـــى عامـــل " الإضاءة " لهذا الشموخ الذى يأخذ بعده النفسى من إحساس الشاعر " بخمول " الذكر ، وخمول الواقع الاجتماعى والفنى إحساساً محبطاً " .

واستمر هذا حال السّرىّ حتى بعد أن خرج إلى حلب واتصل بســـيف الدولة ومدحه وأقام بحضرته فاشتهر وبعد صيته ، ولمّا مات ســـيف الدولـــة انتقل السَّرى إلى بغداد ومدح الوزير المُهلّبى وغيره من الأعيان والصـــدور فارتفق وارتزق ، وحَسُنت حالهُ وسار شعره فى الآفاق [2] " . إلاّ أنه بقى أسير مهنته وعداوة الخالديين له مع مكانتهما ، ووجـــود الشـــعراء الكبـــار أمثـــال المتنبى. ولذلك وجدناه يستغل الشمعة فيخلع عليها ما يتمناه من شموخ .

❀ ❀ ❀

ويأتى محمدُ بن هانئ الأندلسى (ت ٣٦٢هـ) والذى كانت منزلته عند المغاربة كمنزلة المتنبى عند المشارقة " نال حظاً واســـعاً مـــن علـــوم الأدب وفنونه وبرَّز فى الشعر فلم يُباره فى حلبته مُبَارٍ ، ولم يَشُقّ غُبَـــارُه لاحـــق "

---

[1] – شعراء من العصر العباسى الثانى : د. عبد الله أحمد باقازى ، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

[2] – معجم الأدباء ، جـ٣ ، ص ٣٦١ .

وهو الذى أسف على موته المعز لدين الله أسفا عظيما وقال هذا الـذى كنـا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك [1] " .

وبرغم هذا الفضل إلاّ أنه كان متهماً بالفلسفة يسلك فى أقواله وأشعاره مَسلَك المَعرّى فأزعجه أهل الأندلس واضطروه إلى الخروج من وطنـه ... فخرج متنقلاً فى البلاد فإلى (عَدْوَة) المغرب ومنها إلى الديار المصـرية ، ويحاول أن يعود إلى بلده إشبيلية مرة أخرى ، فلما بلغ (بَرْقه) وهـو فـى طريق عودته يجدونه مخنوقاً ولم يعرف سبب ذلك ولا فاعله [2] .

رجل هذا فضله لم يستوعبه مكانه وزمانه فخرج هائماً على وجهه بين البلدان تاركا وطنه وتاركا أهله وعياله فى هذا الوطن عيشة مضطربة حزينة. ولهذا وجدناه يتجه إلى الشمعة يحاول أن يعقد مشابهة بينها وبينه يقول [3] :

لقد أشبهتنى شمعة فـى صـبابتى
وفى هول ما ألقـى ومـا أتوقَّـعُ

نحولٌ وحزنٌ فى فنـاء ووحـدةٍ
وتسهيدُ عينٍ واصـفِرارٌ وأدْمـعُ

فالشاعر عاش بين حالتين يتصارعان فى نفسه : حالة الشوق إلى أهله ووطنه وعياله وحالة الخوف من هول ما ينتظره من موت محقق . فالحالـة الأولى حالة شوق قد يقتله والشوق عطاء ، والحالة الثانية مصير القتل الـذى ينتظره والقتل فناء . وما بين العطاء والفناء تنتابه عوارض القلق من وحـدة وحزن واصفرار ونحول .

---

[1] – نفسه ، جـ٥ ، ص ٤٦٨ وما بعدها .

[2] – معجم الأدباء ، جـ٥ ، ٤٦٩ .

[3] – نفسه ، جـ ٥ ، ص ٤٧٥ .

والشاعر قبلُ أراد أن يعطى ، فالفلسفة عطاء ، ولكنَّ عطاءَه تحطم على أعتاب مجتمعه الذى لم يكن مؤهلاً لتلقى هذا العطاء ، فطرد وهدد بالقتل، بل تسببوا فى قتل عقله ، أليس فى اتجاهه إلى السكر تحت الضغط النفسى قتل للعقل ؟ لقد قيل : " فلمّا بلغ بَرّقَةَ نزل على أحد أعيانها للرّاحة فأضافه أيّاما فخرج ليلة سكرانَ من بيته فلما أصبح الناس وجدوه مُلْقى فى سَانية من سَوانى البلد مخنوقاً بتكّة سراويله " [١] .

إنّه كالشمعة تماماً ، عطاء يؤدى إلى الفناء الحتمى ، وبرغم أن هذه سمات الشمعة إلاّ أنه قَلَبَ التشبيه فيؤكد أن الشمعة تشبهه وكأنَ مصيره محدد ومكتوب ومتوقع من البداية . ولكن قبل المصير لابد من المرور بمراحل مشتركة فالشمعة لابد أن تحزن وتصفرّ وتنحل وتسهر الليل ، وهو كان كذلك. إن الساعات التى يقضيها الإنسان فى انتظار مصيره المحتوم هو شىء أشد من الموت نفسه ، لأنها لحظات يعيش فيها الإنسان الموت بأحاسيسه ومشاعره أما الموت فى حد ذاته فهو يقضى على كل هذه الأحاسيس ، ومن هنا كانت الشمعة هى التى تشبهه لأنها اعتادت هذا المصير الذى يأتى بدون لحظات خوف وقلق أما هو فيعيش الموت قبل الموت . ولكنه فى النهاية كان شمعة وسيظل شمعة ربما تضىء فى زمان ومكان مختلفين .

* * *

أما ابن الأنبارى أبو الحسن محمد بن عمر بن يعقوب (ت ٣٦٧هـ) فله مع الشمعة شأن آخر ، يتضح بعد أن نعرف أن ابن الأنبارى هذا قال قصيدة فى رثاء الوزير ابن بقية الذى قتله عضد الدولة حيث طرحه أمام الفيلة

[١] - معجم الأدباء ، جـ٥ ، ٤٦٩ .

لتقتله ثم صلب عند داره بباب الطاق . " هذه القصيدة لم يسمع فى مصلوب أفضل منها ، حتى عندما وصل خبرها إلى عضد الدولة ، وأنشدت بين يديه فتمنى أن يكون هو المصلوب دونه ، يقول منها " [1]

علو فى الحياة وفى الممات
لحقّ أنت إحدى المعجزاتِ
كأنّ الناس حولك حين قاموا
وفود نداك أيام الصّلاتِ
كأنّك قائمٌ فيهم خطيباً
وكلهم قيام للصلاةِ
مددت يديك نحوهم احتفاء
كمدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن
يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستنابوا
عن الأكفان ثوب السافيات

يرثيه ابن الأنبارى متحدّيا مشاعر خوفه من عضد الدولة منتصرا على نفسه ، منتصراً لمبادئه ويفر عن عضد الدولة ، ولكن فصول الرواية لابد أن تتم حيث يمثل ابن الأنبارى أمام عضد الدولة بعد أن أعطاه الأمان – ويسأله عضد الدولة : ما الذى حملك على مرثية عدوى ؟ فقال : حقوق

[1] – نكت الهميان فى نكت العميان : لصلاح الدين الصفدى ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، المطبعة الجمالية فى مصر ١٩١١م ، وانظر وفيات الأعيان ، جـ ٥ / ١٢٠ / ١٢١ .

سلفت، وأيام مضت ، فجاش الحزن فى قلبى فرثيت ، فقال : هل يحضـــرك شيء فى الشموع ؟ والشموع تزهر بين يديه " ، إنها لحظة حاسمة فى حيـــاة ابن الأنبارى ، إنه ما زال فى موضع المساءلة ، وما زال عضد الدولـــة لـــم يتخذ قراراً بشأنه ، إن الشمعة ربما هى التى ستحدد مصيره إنه لا يريـــد أن يصفها بالدموع والاصفرار والنحول والفناء حتى لا يـــربط مصـــيره بهـــذه الصفات . فلابد أن يبحث لها عن صفات أخرى تعطى له الأمل فى الحيـــاة ، وسرعان ما تسعفه قريحته فيقول :

كـــأنّ الشـــموع وقـــد أظهـــرت
من النار فـــى كـــل رأس ســـنانا
أصــــابع أعـــدائك الخــــائفين
تضـــرّع تطلـــب منـــك الأمانـــا

لقد ترك ابن الأنبارى جميع صفات الشمعة المعروفة ، ونظـــر إلـــى شعلتها التى تهتز ببطء ، فأخذ هذه الشعلات المهتزة وشبّه بها الأصابع الخائفة التى تهتز وتتضرّع وتطلب الأمانا ، إن هذه الصورة الجديدة للشمعة حـــددت الطريق أمام قرار الأمير ، إذ ليس أمامه إلاّ أن يصدر قرار عفو ، ويكمل ابن خلكان : فلما سمعها – أى الأمير عضد الدولة – خلع عليه ، وأعطاه فرســـاً وبدره "[١] .

إن ابن الأنبارى قد خلع مشاعره المروّعة علـــى الشـــمعة فـــاهتزت لاهتزازه واهتز معها قلب عضد الدولة .

---

[١] – وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

ولعل تحليل الدكتور عبد الله باقازى لهذه الصــورة يزيــدها تجليــة وجمالا . يقول [1] : " ولعلنا ونحن نستحضر مشاهد المأساة المروعة ، وفصول فرار ابن الأنبارى وعودته ، ووفائه لابن بقية ، لا نعدم الإشارة إلى ذكاء ابن الأنبارى ومحاولته الذكية الناجحة فى استغلال اللحظة ، حيث طلب إليه عضد الدولة أن يقول شيئاً فى الشموع " وهى تزهر بين يديه " فانبرى ابن الأنبارى يستغل " اللحظة " لصالحه بذكاء واضح حتى يمهد لرضا عضد الدولة عنه .

كــأن الشــموع وقــد أظهــرت
من النار فى كــل رأس ســنانا

تضىء " الشموع " فى البيت طريق " الأمل " للشاعر المهدد من قبــل عضد الدولة وهو يواجهه ويخشى على مصيره ، وفى وسط عتمة " اللحظة " التى يعيشها تأتى الشموع هنا " وميض أمل " يلهث داخل عتمة اللحظة التــى يعيشها الشاعر .

أما فى البيت الثانى :

أصــــابع أعـــدائك الخـــائفين
تضرّع تطلــب منــك الأمانــا

فإن كلمة " أصابع " وقد تلبست حالة الشموع الدالة على الأمل المنجى للشاعر الخائف فإن الأصابع لتتخذ بالإضافة إلى ذلك وضعها البشرى ضـــمن تكوين اليد التى تمتد طالبة الصفح والغفران من قبل الشاعر إلى عضد الدولة، وتتضافر كلمة " الشموع " و " الأصابع " فى رسم عالم النجاة والعفــو مــن

---

[1] – شعراء من العصر العباسى الثانى ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

خلال " الإضاءة " الدالة على الأمل التى تطرحها كلمة " الشموع " ودلالـــة " طلب الصفح " التى تطرحها الأصابع ، إضافة إلى ان الأصـــابع تمتــد فـــى التعبير عن حالة العفو بتشكلها البشرى وكأنها " يد " تمتد مصافحة ورامـــزة للسلام والمودة ومد صفحة جديدة من الوئام والسلام " .

وهكذا نجد أن شمعة ابن الأنبارى والتى جعلها شموعاً ليكثـــر مـــن الأصابع المتضرعة – أعطته أكثر من العفو ، أعطته : العفو وخلعا وفرســـاً وبدرة .

ولكن هل أخذ ابن الأنبارى العفو وصمت بعدها ؟ لم يحـــدث هـــذا . يقول ابن خلكان : [1] " ولم يزل ابن بقية مصلوباً إلى أن توفى عضد الدولة – فأنزل من الخشبة ، ودفن فى موضعه ، فقال أبو الحسن ابن الأنبارى :

لم يلحقوا بك عاراً إذ صُلِبْتَ بلـــى
باءوا بإثمك ثم اســـترجعوا نـــدما
وأيقنوا أنهم فـــى فعلهـــم غلطـــوا
وأنّهم نصبوا مـــن ســـؤدد علمـــا
فاسترجعوك وواروا طـــود عـــلا
بدفنه دفنـــوا الأفضـــال والكرمـــا
لئن بليت فـــلا يبلـــى نـــداك ولا
ينسى ، وكم هالك ينسى إذا عـــدما
تقاسم الناس حسن الذكر فيك كمـــا
ما زال مالك بين النـــاس منقســـما

---

[1] – وفيات الأعيان : جـ٥ ، ص ١٢١ .

وهكذا نجد أن شمعة ابن الأنبارى لم تتسبب فى عتق رقبته فقط ، بل جعلت ذكراه مضيئة فى كتب التاريخ لتدلل على رجل كان أحرص ما يكـون على المبادئ ، وكان مثلا حيًا للوفاء ، فى عصر غاض فيه الوفـاء وانعـدم الأوفياء ، ألم يكن أحد العدول فى بغداد كما قال الصفدىّ [١] :

● ● ●

ويأتى الببغاء أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومى (ت ٣٩٨) ، ليجعل من الشمعة رمزاً للموت والبلى ، لنقف على نتف من حياتـه لنعـرف لماذا نظر إلى الشمعة هذه النظرة ؟

الببغاء شاعرمن شعراء سيف الدولة حيث مكث فى بلاطه مدة طويلة تزيد عن عشرين عاماً . يقول الثعالبى : " وكان فى عنفوان أمـره وريعـان شبابه متصلاً بسيف الدولة مقيما فى جملته ، ثم تنقلت به بعد وفـاة صـاحبه الأحوال فى وروده الموصل وبغداد ومنادمته بهما الملوك والرؤساء ، وإخفاقه مرة وإنجاحه أخرى " [٢] . فلقد لازم الشاعر الأمير الحمدانى طوال حكمـه ، ونعم بصلاته العميمة ، وعطاياه الجزيلة ، فتبدل حاله من فقر إلـى غنـى ، ومن ضيق يد إلى سعة فى العيش وخفض فى الحياة ، ولـولا علمـه وأدبـه وشعره ما وصل إلى هذه المنزلة فى بلاط سيف الدولة . يقول الثعالبى عنه : " نجم الآفاق وشمامة الشام والعراق ، وظرف الظرف ، وينبـوع اللطـف ، وأحد أفراد الدهر فى النظم والنثر . له كلام بلا مداد ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام " [٣] .

---

[١] – نكت الهميان ، ص ٢٧٢ .

[٢] – يتيمة الدهر للثعالبى ، جـ١ / ٢٣٦ .

[٣] – نفس الصحيفة .

ولكن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة فسرعان ما يموت سيف الدولة سنة ٣٥٦هـ فتتقلب الحياة على الببغاء فينتقل من بلاط إلى آخر ثم ينـزوى بعيداً عن الحياة فى آخر حياته يقول الثعالبى [١] " وآخر ما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر التقائه معه عند صدوره من الحج وحصوله فى بغداد فى سنة ٣٩٠هـ ، ورؤيته بها شيخاً عالى السن ، متطاول الأمر ، نظيف اللبسة ، بهى الركبة ، مليح اللثغة، ظريف الجملة ، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ولست أدرى ما فعل الدهر به " .

ولكن يبدو أن الشاعر قد ساءت حاله فى أواخر حياته ، وهو يتبرم من أبناء زمانه ، ويشكو من سوء طباعهم فيقول : [٢]

أكلُّ وميض بارقة كذوبُ
أما فى الدهر شىء لا يريبُ
تشابهت الطباع فلا دنىء
يحن إلى الثناء ولا حسيبُ
وشاع البخل فى الأشياء حتى
يكاد يشح بالريح الهبوبُ
وكيف أخصُّ باسم العيب شيئا
وأكثر ما تشاهده معيبُ

---

[١] - يتيمة الدهر جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

[٢] - شعر الببغاء : دراسة وتحقيق ، د. مسعود محمد عبد الجابر ، المقدمة ، ص ١٦ ، ص ٤٥ ، مؤسسة الشرق للعلاقات العامة - عمان ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

وأصاب الشاعر الفقر وعضه الدهر ، أشار إلى ذلك بوضوح خــلال مدحه لعميد الجيوش الحسن بن أبى جعفر الذى استنابه بهاء الدولة بن عضــد الدولة على العراق فقدمها سنة ٣٩٦ ، فاستغاث به الشاعر وقال : [١]

ســـألت زمـــانى بمـــن أســـتغيث
فقـــال اســـتغثْ بعميـــد الجيـــوشِ
فناديـــت مـــالى بـــه حرمـــةٌ
فجاوب حوشيتَ من ذا وحوشـــى
رجـــاؤك إيـــاه يُـــدنيك منـــه
ولو كنت بالصـــين أو بـــالعريشِ
نبـــت بـــى دارى وفَـــرّ العبيـــ
ـــدُ وأودت ثيابى وبعت فروشـــى
وكنـــــت أُلَقَّـــــبُ بالببغـــــاء
قديما فقد مـــزّق الـــدهر ريشـــى
وكـــان غـــذائى نَقـــىُّ الأرُزّ
فهـــا أنـــا مُقْتنـــعٌ بالحشـــيش

رجل هذا حاله تغيرت عليه أحوال وأحوال فمن بحبوحة فى العيش فى الشباب إلى فقر وضنك وضيق فى المشيب ، وهل يقاوم الفقر جســم واهــن انسحب عليه من السنوات الكثير . إن الموت هو الراحة فلنتعجله ولنــر مــن خلاله الأشياء . وهنا تبرز شمعة الببغاء متلونة بكل ألوان المــوت والفنــاء

[١] - شعر الببغاء ، ص ١٧ ، ص ١١١ .

يصفها الببغاء لا ليشحنها بمشاعره وأحاسيسه ولكنه يصفها من زاوية معتمة .

يقول : [1]

وصفر كأطراف العــوالى قــدودها
قيام على أعلى كراسٍ من الصّــفرِ
تلبسّن من شمس الأصيل غلائــلاً
فأشرقن فى الظلماءِ بالخِلعِ الصُّفرِ
عرائس يجلوهـــا الـــدجى لمماتهـــا
وتحيا إذا أذرت دموعاً من التبْــرِ
إذا ضربت أعناقها فى رضا الدجى
أعارته من أنوارها خلــع الفجــرِ
تبكى علـــى أحشـــائها بجســـومها
فأدمُعُها أجســـامها أبـــدا تجــرى
علاها ضياءٌ عامــل فـــى حياتهـــا
كما تعمل الأيّامُ فى قصر العُمْــر

ويعلق الدكتور باقازى على هذه اللوحة فيقول : [2] " والشـــمعة هنـــا تجسيد " للنهاية والتآكل السريع ، ومغادرة عالم الحياة ، وهو الشعور الذى ما فتئ يسيطر على مشاعر الشاعر .. إن اللون الأصفر الـــذى ســـيطر علـــى مجريات المقطوعة الشعرية يعمق من الإحساس بهذه النهاية " وصفر كأطراف العوالى " ، " على أعلى كراس من الصفر " ، " بـــالخلع الصّـــفر " كمـــا أنّ

---

[1] – شعر الببغاء ، ص ١٠٠ .

[2] – شعراء من العصر العباسى الثانى ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

دلالات " الموت " التى ظهرت فى المقطوعة تأكيد آخر على الإحساس بهـذه النهاية .. " يجلوها الدجى لمماتها " ، " إذا ضربت أعناقها فى رضا الـدجى " كما أن لفظة " دجى " ، و " الأصيل " تعمق مـن الإحسـاس بالنهايـة فـى المقطوعة من خلال : " يجلوها الدجى " ، شمس الأصيل " .

كما أن قافية المقطوعة " الرائية " المكسورة الموحيـة بالاضـطراب والانكسار المفضى إلى النهاية إيحاء بالإحساس بالنهاية .

إن الببغاء خلع على الشمعة أعراض النهايات ، فالشمعة بداية إشراقها هى نفسها بداية غروبها . هى عروس ولكنها دامعة ، هى التى تضىء وتجعل من الليل فجراً ، ولكن بضرب العنق ، إن ضياءها يعجل بحياتها ، كما تعمل الأيام فى قصر العمر ، وقد عاش الببغاء الكثير ، أشرق وأضاء ، ولكنه بكى أيضاً ، استهلكت الأيام من حياته الكثير ولم يبق من عمره إلاّ الباقى من عمر الشمعة ، إنه أصبح على مشارف النهايات إنه شمعة ، سيفنى حتما ، حتى ولو عاش فترة من حياته على كراس من الصفر . مثل الشمعة التى وصفها .

* * *

أما أبو العلاء المعرى أحمد بن عبد الله بن سليمان (ت ٤٤٩ هـ) ، فيجعل من نفسه شمعة لا فى أنها تضىء للآخرين ، ولكن لأنها مثـال علـى التجلّد والصبر إنها رمز القوة والتحمل ، وهل هناك أقوى من محترق يقـف مصلوب العود مرفوع الجبين ؛ فالشمعة لا تعرف السقوط ، فهى عندها طاقة على الثبات والاعتدال برغم أنها فى طريقها إلى الاحتضار ، إنها رمز العزة والشموخ وهل كان أبو العلاء إلاّ عزيز النفس شامخاً . ألم يدفعـه شـموخه ورضاه بقدره إلى القول " أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيـرى علـى البصر " [1] .

---

[1] - معجم الأدباء ، جـ١ ، ٤١٠ .

مواقفه مع الإحساس بالذات والتحدى كثيرة " رحل إلى بغداد ليبحث عن العلم والعلماء " ، " وقصد أبا الحسن على بن عيسى الرَّبَعى النحوى ليقرأ عليه فلما دخل عليه قال : ليصعد الأسطبل (والاسطبل . فى لغة أهل الشام . الأعمى) ، فخرج مغضباً ولم يعد إليه " [1] ، لقد رفض أن يتعلم على يد إنسان لا يحترم الإنسان .

ودخل على المرتضى أبى القاسم ، فعثر برجل ، فقال من هذا الكلب ، فقال أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً فقربه المرتضى وأدناه واختبره ، فوجده عالماً مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه إقبالاً كثيرا. وكان المعرى يتعصب لأبى الطيب كثيرا ويفضله على بشار وأبى نواس وأبى تمام ، والمرتضى يبغضه ويتعصب عليه فجرى يوما ذكره فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه ، فقال المعرى : لو لم يكن للمتنبى من الشعر إلاّ قوله :

لك يا منازل فى القلوب منازل

لكفاه فضلاً وشرفا . فغضب المرتضى وأمر به فسحب برجله وأخرج من مجلسه . وقال لمن بحضرته : أتدرون أى شىء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ، فإن لأبى الطيب ما هو أجود منها ولم يذكرها ، فقيل السيد النقيب أعرف . فقال أراد قوله :

وإذا أتتك مذمّتى من ناقص

فهى الشهادة لى بأنّى كاملُ [2]

---

[1] - نكت الهميان ، ص ١٠٣ .

[2] - نفسه .

أرأينا جرأة أبى العلاء فى قول الحق حتى فى وجه من أدناه وأكرمه ، إنه جاهر بالحق مع علمه بخيبة أمل متوقعة . إنه شموخ المبـادئ وارتفـاع النفس . ويعود أبو العلاء إلى معرته مرة أخرى ليعـيش رهـين محبسـيه : المنزل ، والعمى ولكن بإرادته . وبعد أن تزود بكتب كانت موقوفة بطرابلس، وبعد أن سمع فى الفلسفة من راهب بدير فى اللاذقية " [1] .

قلل احتياجاته من الدنيا فزاد شموخه فيها ، لم يربط حياتـه بأسـباب بشر فعاش بفقره فوق البشر حتى " أن المستنصر صاحب مصر بـذل لأبـى العلاء المعرى ما ببيت المال بالمعرّة من الحلال فلم يقبل منه شيئا . وقال :

لا أطلب الأرزاق والمولى يفيض علىّ رزقى
إن أُعْطَ بعض القوت أعلم أنّ ذلك فوق حقى [2] .

إن أبا العلاء يستكثر على نفسه من القوت أقل القليل حتى يوفرّ لنفسه من العزة والكرامة والمجد الكثير . فحقق معادلة التفوق على عصره فجحـده جهال عصره واتهموه بالزندقة والإلحاد . يقول الصفدى : " وكان يرمى مـن أهل الحسد له بالتعطيل ويعمل تلامذته وغيرهم على لسانه الأشعار يضمنونها أقاويل الملحدة قصدا لهلاكه ، وإيثاراً لإتلاف نفسه " [3] كان يحزن لأفعـالهم ، ولكنه لم يتوقف عن العطاء ، أصرّ على مقومـات التفـوق فـأتى بالعجـب العجاب، بالجديد فى كل شيء فى الفكر والفلسفة ، فى الشـعر والنثـر جـاء بشيء لم يألفه عصره ، فصنع ما يشبه الصدمة فى هذا العصر ، لقـد كـان

---

[1] – نكت الهميان ، ص ١٠٣ .
[2] – نفسه ، ص ١٠٥ .
[3] – نفسه .

متجاوزا زمانه بمسافات طويلة فاختلف عليه أهل زمانــه ، يقــول يــاقوت : " والناس فى أبى العلاء مختلفون ، فمنهم من يقول كان زنديقا ، ومنهم مــن يقول: كان زاهداً عابدا مُتقلِّلاً ، يأخذُ نفسه بالرّيَاضة ، والخشُونة ، والقناعــة باليسير ، والإعراضِ عن أعراض الدّنيا " [1] . ويعــيش أبــو العــلاء فــوق الطرفين كنجم متألقٍ ، يضىء للآخرين مع أنه لا يرى . حتى بعد أن ســعى أعداؤه فى قلته وهلاكه ازداد شموخه بثقته المطلقة فى الله .

ولنتابع هذا الخبر الذى قد يصل إلى حد الخيال ، " وقد وشى وزيــر محمود بن صالح صاحب حلب إليه ، بأن المعرى زنــديق لا يــرى إفســاد الصور ، ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله إليــه وبعث خمسين فارساً ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليــه عمه مسلم بن سليمان ، وقال : يا ابن أخى ، قد نزلت بنا هذه الحادثة ، الملك محمود يطلبك ، فإن منعناك عجزنا ، وإن أسلمناك كان عاراً علينا عند ذوى الذمام ، ويركب تنوخاً الذلُّ والعارُ . فقال : هوّن عليك يا عم فلا بأس علينا ، فلى سلطان يذب عنىّ ، ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليــل . ثــم قــال لغلامه انظر إلى المريخ أين هو ؟ قال : فى منزلة كذا وكــذا ، قــال زنــه واضرب تحته وتداً وشد فى رجلى خيطا واربطه إلى الوتد ، ففعل غلامه ذلك . فسمعناه وهو يقول : " يا قديم الأزل ، يا علة العلل ، يا صانع المخلوقات ، وموجد الموجودات ، أنا فى عزك الذى لا يرام ، وكنفك الــذى لا يضــام ، الضيوف الضيوف ، الوزير الوزير . ثم ذكر كلمات لا تفهــم . وإذا بهــزة عظيمة ، فسئل عنها : فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ١ ، ص ٤١٦ .

الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر لا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمّام على الوزير " [١] .

إن صح الخبر ففيه من المعرى ثقة مطلقة فى الله تزيده عزة وشموخا، وإن كان الخبر من نسج الخيال فحسب المعرى تراثه الذى تركه يزداد به تألقاً وجمالا .

أما عن التهم الموجهة لدينه فيكفينا أن نسمعه يقول : [٢]

أقيم خمسى وصوم الدّهر آلفه
وأذمِنُ الذكر أبكاراً بآصالِ
عيدين أفطر فى عامى إذا حضرا
عيد الأضاحى يقفو عيد شوال
إذا تنافست الجهال فى حلل
رأيتنى وخسيس القطن سربالى
لا آكلُ الحيوان الدّهر مأثرة
أخاف من سوء أعمالى وآمالى
وأعبد الله لا أرجو مثابته
لكن تعبّد إكرامِ وإجلالِ
أصون دينى عن جَعْلٍ أؤمله
إذا تعبد أقوام بأجعالِ [١]

[١] - نكت الهميان ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
[٢] - نفسه ، ص ١٠٩ .

فهلاّ بعد ذلك أن نرى فيه رأى الباخرزي حينما قال : " ولكن ربما رشح بالإلحاد إناؤه ، وعندنا خبر بصره ، والله العالم ببصيرته والمطلّع على سريرته " [٢] .

ويكفينا هنا فى هذا الموضع أنه عاش قوياً شامخاً لا تلين عريكته رجل هذه صفاته ، كيف ينظر إلى الشمعة ؟ وبل ولماذا نظر إليها أصلا ؟ مع أنه ليس فى حاجة إلى إضاءتها . مع أن هذه الإضاءة هى التى دفعت الشعراء إلى تأملها . إنه أعمى ، والأعمى لا يحتاج للضوء إلاّ لكى يراه الآخرون من خلاله ولا يرى هو الآخرين .

ولكن المعرى من خلال حاسة السمع وحاسة اللمس استطاع أن يكوّن للشمعة فى مخيلته مثالاً للقوة والشموخ والتحدى ، كما أنها مثال للعطاء أيضاً. وهل المعرى إلاّ بين هذا وذاك . يقول المعرى فى الشمعة باثاً فيها سمات التحمل والشموخ [٣] :

وصفراءَ مثلى فى هواها جليدةٌ
على نوب الأيّام والعيشة الضنكِ

تريك ابتساماً دائما وتهلّلا
وصبراً على ما نابها وهى فى الهُلْك

فلو نطقت يوماً لقالت أظنكم
تخالون أنىَ من حِذار الردى أبكى

فلا تعجبوا من ضحكها وابتسامها
فقد تدمع الأجفانُ من كثرة الضحكِ

---

١ – الجعل بمعنى الرشوة (القاموس) .
٢ – دُمية القصر : لأبى الحسن الباخرزى ، تحقيق د. سامى مكى العانى ، جـ١ / ص ١٢٨ ، دار العروبة – الكويت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
٣ – دُمْيَة القصر ، جـ١ ، ص ١٣١ .

والمعرى عندما يبدأ مقطوعته بالحديث عن اللون الأصفر ، فهـو لا يقصد اللون ، ولكنه يقصد الدلالات التى يستدعيها هذا اللون من سهر وسـهد وضنى ، " فالمكفوف لا يتصور من الألوان شيئا – إلاّ إذا كُـفَّ بعـد سـن الإدراك والتمييز – لذا فإن تشبيه المكفوف باسـتخدامه الألـوان هـو تقليـد ومحاكاة " [1] ، والمعرى نفسه قد اعترف بذلك ، فقد ذكر مؤرخـوه قولـه : " لا أعرف من الألوان إلاّ الأحمر لأنى ألبست فى الجدرى ثوبـاً مصـبوغاً بالعصفر لا أعقل غير ذلك ، وكل ما أذكره من الألوان ، إنما هو تقليد الغير واستعارة منه " [2] . فالمعرى ذكر اللون الأصفر للوازمه التى رسخت فى ذهنه سماعا عن هذا اللون .

والمعرى حينما أسقط حالته على الشمعة دار حول ثلاثـة مجـالات متصلة : المجال الأول يتمثل فى المصائب والمصاعب التى تقابله فى حياتـه والتى عبر عنها بـ " نُوب الأيام ، العيشة الضنك ، الهُلْكِ الـرّدَى " ، وهـذا المجال يقابله فى الشمعة الاحتراق ، المجال الثانى يتمثـل فـى الأعـراض المترتبة على ما يسببه المجال الأول ، وقد عبر عنها المعـرى بالعبـارات : "صفراء " ، " أبكى " ، " تدمع الأجفان " وهذا المجال يمثل عنـد المعـرى ، السهد والضنى والسهر ، يقابله فى الشمعة ذوبان الجسم واصـفراره نتيجـة الاشتعال .

---

[1] – شعر المكفوفين فى العصر العباسى : د. عدنان عبيد العلى ، ص ٣٢٥ – دار أسـامة للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ١٩٩٩م .

[2] – أنباء الرواة : للقفطى ، تحقيق : محمد أبى الفتح إبـراهيم ، جـ١ / ٤٩ . الهيئـة المصرية للكتاب ، ١٩٨١م .

المجال الثالث يتمثل فى أثر المجالين السابقين على الشاعر والشـمعة وعبر عنه المعرى بالعبارات : " جليدةً " ، " وصبراً " ، " ابتساماً " ، " كثـرة الضحك " وكلها عبارات توحى بالتجلّد والقوة والعطاء والشموخ عند المعرى وعند الشمعة .

فالشمعة كانت تتجلد وتصبر وتعطى ، لأن طريقها مرسـوم ، فلهـا دورة حياة لا تتغير والتى تنتهى بمصير محتوم . فلا جـدوى مـن التملمـل والضعف .

وأبو العلاء يؤمن بنفس المصير المحتوم ، يقول فى بعـض أبياتـه ساخراً ممن يضحك متمسكاً بالحياة : [1]

ضحكنا وكان الضحك منّا سـفاهةً
وحُقَّ لسكان البسـيطة أن يبكـوا
تُحَطِّمنـا الأيّـامُ حتَّـى كأننـا
زُجاج ولكن لا يعـاد لـه سـبكُ

هذا الاعتراف بالمصير المحتوم ربما دفع أبا العلاء إلى التواضـع يقول فى كتاب من تصانيفه أهداه : [2]

قبـول الهـدايا سُـنَّةٌ مُسـتحبَّةٌ
إذا هى لم تَسلكْ طريـقَ تحـابى
وما أنـا إلاّ قَطْـرةٌ مـن سَـحابةٍ
ولو أننى صـنَّفتُ ألـفَ كتـابِ

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ١ / ٤٠٨ ، ومعاهد التنصيص للعباسى ، ١ / ١٤٠ .
[2] – معاهد التنصيص ، جـ١ / ١٤٢ .

والشمعة أيضا وصفها بالتواضع ، ألم يقل : " تريك ابتساماً دائما وتهللا " .

وإذا كان ابتسام الشمعة وكثرة ضحكها يتمثل فى العطاء الذى تؤديه ، وهو فى الأساس الإضاءة ، فليس ابتسام أبى العلاء وضحكه على الحقيقة أيضا ، فهو قد رفض كثرة الضحك قبل ذلك ، ولكنه يتمثل فى عطائه أيضا واستمراره فى هذا العطاء ، برغم ما يقابله من مصائب ومصاعب ، وبرغم العيشة الضنك التى تخيّرها ، وبرغم التحريض المستمر على هلاكه وقتله ، فاستمر يعطى ويعطى ، والعطاء هو قمة الضحك والابتسام . وعندما " دخل عليه القاضى المنازى ، فذكر له ما يسمعه عن الناس من الطعن عليه . قال : مالى وللناس وقد تركت دنياهم " [١] .

لقد آثر أبو العلاء أن يكون شمعة مضيئة على طريق البشرية الممتد.

☯ ☯ ☯

ويأتى ابن ماكولا ، أبو نصر على بن هبة الله (ت ٤٨٥) ، ليوظف الشمعة توظيفاً جديداً ، إنه يجعلها مُسْعدته ومساعدته فى ليل سماته الخوف والقلق ، إنه يصورها رافضة للفناء لا تريد أن تنزع من الحياة . إنه يسقط عليها مشاعره هو ، ورغباته هو ، إنه يربط مصيره بمصيرها . يقول : [٢]

أقول ومالى مُسْعِدٌ غيــر شــمعةٍ
على طول ليلى ما تريــد نُزُوعــاً
كلانا نحيلٌ ذو اصــفرار معــذّبٌ
بنار أسالت مــن حَشــاهُ نجيعــا
ألا ساعدينى طــولَ ليلــك إننــا
سنفنى إذا جاء الصــباح جميعــاً

[١] - معاهد التنصيص ، جـ١ / ١٣٩ .

[٢] - معجم الأدباء ، جـ٤ / ٣٤٦ .

فما الذى جعل ابن ماكولا ينتظر هذا الفناء المحقق ؟ مع أنـه " كـان لبيباً عارفاً ، عالماً ... وكان نحويًا مجوداً ، وشاعرا مبرّزاً ، جـزل الشّـعْر فصيح الكلام ، صحيح النقل ، ما كان فى البغداديين فى زمانه مثله " [1] .

ولكنه برغم علمه وفضله كان ابن وزير ، فهو ابن الوزير أبى القاسم هبة الله بن ماكولا وزير جلال الدولة بن بويه ، وكان عمّهُ أبو عبد الله الحسن ابن جعفر ، قاضى القضاة ببغداد " [2] ، ولكن مصير الوزراء فى هذا العصـر معروف ، أقل ما فيه التعذيب والمصادرة مهما كانت منزلة الـوزير . هـل حدث شىء ما جعل (ابن ماكولا) يتنقل من مكان إلى مكان فقد " سـافر إلـى الشام والسواحل وديار مصر ، والجزيرة والثغورُ والجبـال ، ودخـل بـلاد خرسان وما وراء النهر ... ودخل مصر فى زى الكتبة – أى متنكراً ، ورجع إلى بغداد فأقام بها ، ثم خرج إلى خوزستان فقتل هناك " [3] .

فهل كان ابن ماكولا يتوقع هذا المصير ؟ ربما فلقد كان متهماً علـى الأقل فى دينه . يقول ابن الجوزى : " سمعت شيخنا عبد الوهاب يقـدح فـى دينه ويقول : العلمُ يحتاج إلى دين " [4] . وربما كانت هناك مقـدمات جعلتـه يحس بالاغتراب الشديد ، يحس بالوحدة ، ويتوقع الفناء العاجل .

ومن هنا وجدناه يلجأ إلى الشمعة طالباً منها المساعدة " ألا سـاعدينى طُولَ ليلك " ، إنّه يخاف أن تنتهى فتتضاعف وحدته فليس له أنيس يسعده فى

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ٤ / ٣٤٢ .

[2] – نفس الصحيفة .

[3] – معجم الأدباء ، جـ٤ / ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

[4] – نفسه ، ص ٣٤٢ .

ليله الطويل غير هذه الشمعة ، إنّه يبثها رغباته فى التمسك بالحيـاة ، ولهـذا وجدنا الشمعة ترفض أن تُقلع عن الحياة ، لا حبا فى الحيـاة فهـى تعـرف مصيرها ، ولكن لتؤنس وحدته فى ليله الخائف المضطرب .

لقد عاشا معا – الشمعة والشاعر – ليلة طويلة يتجاذبها صراع بـين الحياة والموت . فالشمعة لا تريد نزوعا والشاعر لا يريد نزوعاً أيضاً ، ومع الصباح الشاعر يتوقع الفناء الحتمى ، وذلك مع ظهور أمره ومع انتهاء أمـر الشمعة .

وبين الرغبة فى البقاء وحتمية الفناء ، يعيش ابن ماكولا والشمعة حالة واحدة أعراضها : الاصفرار والنحول ، والتعذيب الداخلى . وذلـك بسـبب الاحتراق بنار مادية فى الشمعة ونار معنوية فى ابن ماكولا .

ولكنه كان متأكداً من النهاية ، " إننا سنفنى إذا جاء الصباح جميعاً " ولهذا قتل وانطفأت معه شمعته .

☯ ☯ ☯

أما الحسن بن أسد الفارقى ، أبو نصر ، (ت ٤٨٧) فقد جعـل مـن الشمعة مؤانسة ومسامرة فى وقت عزّ فيه المؤانس والمسـامر . فالفـاروقى " شاعر رقيق الحواشى مليح النظم متمكن من القافية .. وكان نحوياً رأسـاً ، وإماماً فى اللغة يُقتدى به ، وصنف فى الآداب تصانيف تقوم له مقام شـاهدى عدلٍ بفضله وعظم قدره .. كان فى أيام نظام الملك والسـلطان ملكشـاه "[١] وكان " تولى الديوان بآمد وأساء التدبير فيه ، لكهولته وتداخله فحقـق معـه واعتقل إلى أن شفع فيه طبيبٌ كان حظيًا بحضرة ملك شاه . فأطلق سراحه . وانتقل إلى ميافارقين . وقد باضت الرياسة فى رأسه وفرخت "[٢] .

---

[١] – معجم الأدباء ، جـ٢ / ٤٥٧ .

[٢] – أنباء الرواه ، جـ١ / ٢٥٤ .

وقام بالتمرد والعصيان مع أهل ميّافارقين على ابن مروان صاحب ديار بكر " وأسقط اسم ابن مروان من الخطبة .. وبلغ ذلك ابن مروان .. فأنفذ إليه جيشاً .. وصدقوا في الزحف على المدينة حتى أخذوها عنوة ، وقبض على ابن أسد ، وجيء به إلى ابن مروان فأمر بقتله .. فتدخل الغسّاني وكان لابن أسد يد عنده – في الشفاعة فيه إلى أن أطلقه ابن مروان .

وأقام ابن أسد مدّة ساءت حاله وجفاه إخوانه وعاداه أعوانه ، ولم يُقْدم أحَدٌ على مقاربته ولا مرافدته . حتى أضرّ به العيش ، فعمل قصيدة مدح بها ابن مروان ، وتوصل حتى وصلت إليه ، فلما وقف ابن مروان عليها غضب وقال : ما يكفيه أن يخلص منّا رأساً برأس ، حتى يريد منّا الرّفد والمعيشة ، لقد أذكرني بنفسه ، فاذهبوا به فاصلبوه ، فذهبوا به فصلبوه "[1] .

فالفارقي باضت الرئاسة في رأسه وفرخت ، أي أصبح محباً لها ، قاده حبه للرئاسة إلى التمرد ومنها إلى السجن والتهديد بالقتل . ثم شفاعة بغير مسامحة ، ثم إلى وحدة ، وفقر وضنك ، ثم إلى الصلب بالذنب القديم .

هذه حياة الفارقي وهذه مأساته ، والتي جعل شمعته تعيشها ، بحيث الصفات هي الصفات والملامح هي الملامح ، لا فرق إلاّ في أنها نديمة وهو مُنَادم ، والمنادِم أعلى في الرتبة من النديم ، وأن لهبها بادٍ ولهبه خفيّ بين جوانحه . يقول الفارقي[2] :

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ٢ / ٤٥٩ ، ٤٦٠ .

[2] – معجم الأدباء ، جـ٢ / ٤٦٢ .

ونديمةٍ لى فـــى الظـــلام وحيـــدةٍ
مثلـــى مجاهـــدةً كمثـــل جهـــادى

فاللون لونى والـــدموعُ كـــأدمعى
والقلب قلبـــى والســـهادُ ســـهادى

لا فرق فيما بيننا لـــو لـــم يكـــن
لهبى خفيًـــا وهـــو منهـــا بـــادى

فالفاروقى عاش الشمعة وعاشته . الاثنان يمـــران بـــنفس الظـــروف فحياتهما فى ظلام يجمعها . ظلام الشمعة على الحقيقة وظلام الفاروقى خوف وفزع وعدم طمأنينة .

وكذلك الوحدة فهو وحيد لعزوف الناس عنه ، وهى وحيدة لأنه أرادها كذلك . هى تجاهد احتراقها ، وهو يجاهد ما ينتابه من خوف وفزع .

وما دامت الظروف واحدة ، فالأعراض بطبيعة الحال ستكون واحدة ، ولذلك وجدنا : اللون هو اللون ، والدمع هو الدمع وقلبه المضطرب هو قلبها ، والأرق هو الأرق . فالاثنان شيء واحد ، لا فرق غير أن لهبها مادى ولهبـــه معنوى فى داخله .

وفى النهاية صُلب الفاروقى وصلبت معه شمعته لأنها كانت من وحى خياله الخائف وإحساسه المضطرب ، فطبيعى أن تصلب بصلبه .

ويأتى الطّغْرائى الحسين على بـــن محمـــد الأســـتاذ ، مؤيـــد الـــدين الأصبهانى (ت ٥١٥هـ) ، ليجعل من الشمعة مقياساً للمعاناة والكد والتعب، فيجد معاناته ومآسيه تفوق ما تتحمله الشمعة بكثير ، لقد كان له مع الشـــمعة شئون وشجون ، مثلما كانت له مع الحياة شئون وشجون .

فالطغرائى بضم الطاء المهملة ، وسكون الغين المعجمة وفتح الـــراء بعدها ألف مقصور ، هذه النسبة إلى من يكتب الطّغْرى ، وهى الطرّة التـــى تكتب فى أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ . ومضمونها نعـــوت الملـــك الذى صدر الكتاب عنه وهى لفظة أعجمية " [١] .

والطغرائى " خدم السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان ، وكان منشـــئ السلطان محمد مدّة ملكه فتولىّ ديوان الطّغراء ، وصاحب ديـــوان الإنشـــاء ، تشرفت به الدولة السلجوقية ، وتشوقت إليه المملكة الأيوبيـــة ، وتنقـــل فـــى المناصب والمراتب ، وتولى الاستيفاء ، وترشح للوزارة ولم يكن فى الدولتين السلجوقية والإمامية من يماثله فى الإنشاء .. وله فى العربية والعلـــوم قـــدْرٌ راسخ وله البلاغة والمعجزة فى النظم والنثر " [٢] .

" ولقد ألم الطغرائى بمعارف عصره ، وقال الشعر ، وأحس فى نفسه طموحاً إلى المناصب فانخرط فى سلك الكتاب يتقرّب من المتنفذين والوزراء كمعين الملك ونظام الملك ، ودلف إلى السلاطين فخدم ملكشاه ثم ولده محمداً .

---

[١] - وفيات الأعيان : جـ٢ / ١٩٠ .
[٢] - معجم الأدباء ، جـ٣ / ١٥١ ، ١٥٢ .

وبعد أن تقلب فى حلو العيش ومره أصبح نائبا فى ديوان الطغراء فى وزارة (الخطير) .. ولا شك أنه ابتهج كثيرا للمنصب الذى هو أهله ، وحقق به هدفاً طالما سعى غليه ، فهو يطمع بالصدارة ، ولا يرضى لنفسه أن يبقى كاتباً بين كتاب الكثيرين ، أو نائبا يعيش ظلا لغيره ، ثم إنّه لا يسعى إلى ديوان الطغراء من أجل ديوان الطغراء ، إن هذا لا يكفيه ، وما هو إلاّ مرحلة تقربه من الهدف البعد " [1] .

إن خيال الطغرائى كان الأبعد يطمح إلى ما فوق الوزارة ، ومن حقه أن يحلم ، ألم يمتلك كل المقومات التى تؤهله والتى يبز بها غيره .

يقول الطغرائى معبراً عن طموحه وأحلامه : [2]

إذا لم يكن لى فى الولاية بسطةٌ
يطول بها باعى ويَسْطو بها يدى
ولا كان لى حكمٌ مطاعٌ أجيزه
فأرغم أعدائى وأكْبُتُ حُسَّدِى
ولم يَغْشَ بابى موكبٌ بعد موكبٍ
مخافة إيعادٍ وتأميل مَوْعِدِ
فأروَحُ لى منها اعتزالٌ يصونُنى
صيانَةَ مطرورِ الغِرار بن مُغْمَدِ

ولكن هل يتركه من حوله أن يحقق مطامحه ، إن هذا العصر لا يعترف بمقومات التفوق ، بل ربما هذه المقومات تجرّ على صاحبها أضغاناً

[1] - ديوان الطغرائى ، المقدمة ، ص ١٠ .

[2] - الديوان ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

وأحقاداً إن من حق الطغرائى أن يطمح وأن يسعى لأعلى المراتب ، ولكنّ أعلى المراتب يشغلها الغير ، كما أنها محل أنظار الغير أيضاً ، ولهذا وجدنا من وضعوا طموحه تحت المراقبة " فيتتبعوا حركاته وسكناته ، ويفسّروا كل نأمة ، ويحسدوا ويحقدوا ويشوهوا الحقائق ويختلقوا الأباطيل ، ويصبح ديدنهم إزاحة الطّغْرائى عن طريقهم والاستعانة فى سبيل تلك الغاية بكل وسيلة .

وها هم يقتربون من غايتهم ، ويغيّرون عليه قلب السلطان – فى أصفهان – ويؤلبون اللؤماء ويحدون من كلمته ويحطون من مكانته ، فلم يبق له ذلك ولم يعد له ذلك النفوذ ولقد بات فى هم وقلق وبين إقدام وإحجام "[1] . وأصبح يرى طموحاته وأحلامه وهى تحتضر حتى لم يعد يستطيع المحافظة على الوظيفة التى يشغلها ، فنراه يكفر بالناس والمجتمع . ويرى أن كل من حوله ذئاب " فكيف نبحث فيهم عن صديق . يقول :[2]

قالوا وقد بكروا لعَذلى إذ رأوا
أنى بقيت بلا صديق فاردا
هلا اقتنيت صداقة من صاحب
يغدو على نوَب الزمان مُسَاعِدا
فأجبتهم والحَقُّ ينْصرُ نَفْسَه
والصدق لا يبغى عليه شاهدا
إن الصديق هو اسمُ معنى لم نجد
من طالبيه فى البريّةِ واجدا
من لى بهم والله لم يخلقْهُمُ
إن لم أقلْ حَقّاً فهاتوا واحدا

[1] – مقدمة الديوان ، ص ١١ .
[2] – الديوان ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ويترك أصفهان ويذهب إلى بغداد بعيداً عن أعين أعدائه ، ويعمل فى خدمة الخليفة (المستظهر) ، ولكنه لم ينل المنزلة التى يستحقها ، فليس من السهل على الخلافة أن تختص رجلا لم ترض عنه السلطنة ، فسرعان ما يعزل الطغرائى من الديوان ، ويخسر الطغرائى الديوان فى الوقت الذى كان يحدث نفسه بالوزارة [1] .

ويضيق الطغرائى بمجتمعه وتضيق نفسه ، ويكره بغداد ومن فيها ، حيث أصبحت له دار غربة ، دار لا تعترف بمنازل الرجال وأقدارهم . المناصب تسند لغير أهلها . ومن ثمّ وجدناه يصب جام غضبه على بغداد حيث لا فائدة من المقام فيها .

يقول فى العراق نادماً ومتحسراً على ما قضاه فيها من وقت ومال [2] :

مَلِلْتُ ثوائى بالعراق وملَّنى
رفاقى وكان بالعراق طِرابا

وأنفقتُ من عُمرى وذات يدى بها
بضائع لم أملك لهُنَّ حسابا

وفارقنى أهل الصَّفاءِ تبرّماً
بشحط نوى شابوا عليه وشابا

فلا زائرٌ يغشى جنابى لحاجة
ولا أنا أغشى ما أقمتُ جنابا

إذا قلت : إنى قد ظفرت بصاحب
سكنت إليه ، خاننى وأرابا

---

[1] – مقدمة الديوان ، ص ١١ .

[2] – ديوان الطغرائى ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

أقلب عينى لا أرى غير صـــاحبٍ
ظننت به الظـــنَّ الجميـــل فخابـــا
وكيف ثوائى بالعراق وقـــد غـــدا
علـــيَّ بهـــا رَوْح النســـيم عـــذابا

ويكرّس هذه الحالة النفسية وإحساسه الشديد بالفقد والغربة ، شـــعوره بحاجته إلى أهله ووطنه بعد أن انفض الناس من حوله بل وربما وجهوا إليـــه سهامهم . يقول فى لاميته المشهورة [١] .

فيما الإقامة بـــالزوراء لا ســـكنى
بهـــا ولا نـــاقتى فيهـــا ولا جملـــى
ناءٍ عن الأهل صِفرُ الكف منفـــردٌ
كالسيف عُرِّى متنـــاه مـــن الخلـــلِ
فلا صديق إليه مشـــتكى حزنـــى
ولا أنـــيس إليـــه منتهـــى جَـــذَلِى
طال اغترابى حتى حنَّ راحلتـــى
وَرَحْلُهـــا وقَـــرَى العسَّـــالة الـــذُّبلِ
غالى بنفســـى عِرفـــانى بقيمتهـــا
فصنتها عن رخيص القَـــدْرِ مبتَـــذلِ
وعادة النصل أن يزهى بجـــوهره
وليس يعمـــل إلاَّ فـــى يَـــدَىْ بطـــلِ

[١] – ديوان الطغرائى ، ص ٣٠١ وما بعدها .

ما كنت أوثرُ أن يمتد بى زمنـــى
حتى أرى دولة الأوغـــادِ والسّــفَلِ

تقــدمتنى أنـــاسٌ كـــان شـــوطهم
وراء خطوى إذ أمشى علـــى مهـــلِ

هذا جزاء امرىء أقرانه درجـــوا
من قبلـــه فتمنـــى فســحة الأجـــلِ

وإن علانى من دونى فلا عجـــب
لى أسوة بانحطاط الشمسِ عن زُحَلِ

ويقرر الطغرائى العودة إلى " جَىَّ " القرية التى ولد بهـــا بأصـــفهان ويمرض فى " الرَىّ " وهو فى طريقه إلى بلدته ، فينعى نفسه وحاله يقول : [١]

مريضٌ بأرض " الـــرَّى " أعيـــاه داؤه
ولـــــيس إلاّ بجَـــــىِّ طبيـــــب

غريبٌ ، غريبُ القدر والفضل والهوى
ألا كلّ حـــال الفاضـــلين عجيـــب

ومالى ذنـــب يقتضـــى مثـــل حـــالتى
سوى أننَّى ، فيما يقـــال : أديـــبُ

أبى اللهُ جمع الحـــظ والفضـــل للفتـــى
إلى أن يرى مـــاءً ســـقاهُ لهيـــبُ

فإن عِشتُ لم أبرحْ بـــلادى وإن أمـــت
فلا مات بعدى فى الزمان غريـــبُ

١- ديوان الطغرائى ، ص ٩٩ / ١٠٠ .

ويذهب الطّغْرائى إلى بلده ، ويبدأ رحلة البحث فى الكيمياء ، علماً وتأليفا حيث " كشف الأستاذ أبو إسماعيل سرَّ الكيمياء ، وفك رموزها واستخرج كنوزها ، وله فيها تصانيف منها : جامع الأسرار ، وكتابُ تراكيب الأنوار ، وكتاب حقائق الاستشهادات ، وكتاب ذات الفوائد ، وكتاب الرّد على ابن سينا فى إبطال الكيماء ، ومصابيح الحكمة ، وكتاب مفاتيح الرحمة ، وله ديوان شعر وغير ذلك " [1] . ولكن عمله فى الكيماء جرّ عليه الشرَّ فيما بعد حيث كان كل من يخرج عن العلم التقليدى تتخذ ضده ذريعة بالزندقة والإلحاد حدث هذا مع أبى حيان التوحيدى ومع أبى العلاء ، ومع الطغرائى أيضاً .

عاش الطغرائى فى بلدته فترة هادئة ولكن نفسه الطامحة إلى المعالى لم تهدأ ، وكلما وجد من هم أقل منه فى أعلى المناصب تثور نفسه ، وسرعان ما غلب عليه هواه فبدأ يبحث عن رحلة المتاعب من جديد وربما هى رحلة النهايات . يقول فى عزله ومقامه فى أصفهان [2] .

فيم المُقامُ على الهَوانِ وهِمَّتى
ترمى المرامى بى وسيفى مِخْذَمُ
أأضامُ فى دارٍ وأقعدُ راضياً
إنى لنفسى إن فعلتُ لأظْلَمُ
إلاّ أكنْ شاكى السلاح فإنَّنى
بالعزم والرأى الحصيف مُسوَّمُ
نفسى مُشيَّعةٌ ، وقلبى باسلٌ
ويدى مُؤيّدةٌ ، وعقدى مُحكَمُ

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ٣ / ١٥٢ .

[2] – ديوان الطغرائى ، ص ٣٤٣ .

قُـلْ للأُلـى نجحُـوا ورامـوا خُطَّـةً
عسراءَ أعيـا أن تصـادَ الأنجـمُ
إلاّ تكفّـوا عـن عِنـادى أجْنِهَـا
شعواءَ ينْعرُ مـن جوانبهـا الـدّمُ

إحساس بالقهر ، إحساس بالظلم ، ولكن هل أسلحة الطغرائـى التـى رفعها والمتمثلة فى العزم والرأى الحصيف والعلم والأدب ، تستطيع أن تقهر السيف والرمح فى عصر يرى القتل خلاصاً .

يذهب الطغرائى إلى الموصل ليقربه السلطان مسعود ويجعله وزيره ، وعندما مات السلطان محمد بن ملك شاه ، خلفه ابنه محمود أخـو السـلطان مسعود ، ولكن مسعود ينازعه ويريد أن يستقل بالموصل فتحاربا واقتتلا وقتلَ السلطان مسعود ، وقبض على الطغرائى ليقتل وقد جاوز السـتين ، " وروى أنه لمّا عزم السُلطان محمود على قتل الطغرائىَ أمر به أن يُشَدّ إلى شـجرة ، وأن يقف تجاهه جماعة بالسهام ، وأن يقف إنسانٌ خلف الشجرة يكتب ما يقول وقال لأصحاب السهام لا ترموه حتى أشير إليكم ، فوقفوا والسّهام مُفوّقةٌ لرميه فأنشد الطغرائى فى تلك الحالة :

ولقـد أقـول لمـن يسـدّد سَـهْمَه
نحوى وأطـراف المنيَّـة شُـرَّعُ
والموت فى لحظـاتِ أحـورَ طَرْفُـه
دُونـى وقلبـى دُونَـه يتقطّـعُ
باللّهِ فَتِّش عـن فـؤادى هـل يُـرى
فيه لغير هـوى الأحبَّـةِ مَوْضِـعُ
أهْوِنْ بـه لـو لـم يكُـنْ فـى طيِّـه
عَهْدُ الحبيـب وسِـرُّه المُسـتَوْدعُ

فرق له وأمر بإطلاقه " [1] .

أطلقه السلطان ولكن أحقاد وزيره لم تطلقه فسرعان ما اتُّهم بالإلحاد " . فقال وزير محمود : من يكن ملحداً يقتل ، وقتل ظلماً ، وقد كانوا خافوا منه ، ولا قبل عليه لفضله فاعتدُّوا قتله بهذه الحجة " [2] .

وهكذا طويت حياة الطغرائى ، ولكنه خُلِّد فى التاريخ كرجل قتله فضله .

وهكذا وجدنا حياة الطغرائى حياة متقلبة لعالم كبير ، عاش ظلماً وقهراً وغربة ، لاقى من مجتمعه الحقد والكره والموت أيضاً " عاش عمره كله قلقاً ، قلقاً على نفسه ، قلقا على مجتمعه لقد فقد الطغرائى كل شيء ولم يعد إلاّ الموت يتمناه . يقول : [3]

يا رَبِّ إن كان عيشى هكذا غصصاً
فامْنُن علىَّ بموتٍ فهو أروحُ لى
ثُكلٌ وفُرقةُ أحبابٍ ومرزأةٌ
فى المال والأهل والأتباع والخَوَلِ

ومن هنا تكونت نظرة الطغرائى إلى الشمعة ، نظرة مهمومٍ استغرقه همه ، نظرة مقروحٍ طال ليله وغاب صبحه ، ومن هنا وجدنا الطغرائى يتخطى غيره من الشعراء ، الذين جعلوا من الشمعة ذواتهم أما الطغرائى فما

---

[1] - معجم الأدباء ، جـ٣ / ١٥٢ / ١٥٣ .
[2] - وفيات الأعيان ، جـ٢ / ٩٠ .
[3] - الديوان ، ص ٣١٢ .

به أكثر وأكبر ، لأن معاناته لا تقارن ، ومن هنا وجدنا الشمعة عنده مساعدة فقط يتسلى بها ، حيث الشجي يبعث الشجي . يقول الطغرائـــي فـــي عمـــود الشمع : [1] .

ومســـاعدٍ لـــى فـــى البكـــاء مُسَـــاهرٍ
بالليـــل يؤنسُـــنى بطيـــب لقائـــهِ
هـــامى المـــدامع أو يصـــاب بعينـــه
حامى الأضالعِ أو يمـــوتَ بدائـــهِ
غرثـــانُ يأخـــذ روحـــه مـــن جســـمه
فحياتـــــه مرهونـــــةٌ بفنائـــــهِ
يُشْفِى علـــى تَلَـــفٍ فيضـــرْبُ عُنْقُـــهُ
فيكـــونُ أقـــوى موجـــبٍ لشـــفائهِ
ســـــاويتُه فـــــى لونـــــه ونحولـــــه
وفضـــلته فـــى بؤســـه وشـــقائهِ
أفـــــوادعٌ طـــــولَ النهـــــار مرفَّـــــهٌ
كمعـــذَّبٍ بصـــــباحه ومســـــائهِ

ونلاحظ فى البداية أن الطغرائى يتحدث عن الشمعة هنا بلغة المـــذكر باعتبارها عموداً أو قضيباً من الشمع ، على ما يحمله الذكر من قـــوة تحمـــل وتميز فى المقدرة ليتناسب ذلك مع ملكات الطغرائى وقدراته .

والطغرائى يحاول أن يسقط حالته النفسية على عمود الشمع . فعمود الشمع يبكى مثلما يبكى ، ويسهر مثلما يسهر . ولكن برغم الدموع التى تغلف

[1] - الديوان ، ص ٤٢ .

الاثنين إلاّ أن الطغرائى يأتنس به ، لأنه فقد الصديق والصاحب ، ولأن الطغرائى كان جَلداً وجدناه يسقط هذه الصفة على عمود الشمع فهو لا تسقط دموعه إلاّ إذا أصيب بعينه ، وهو حامى الأضالع إلاّ مع موت محقق ، وعمله المتمثل فى الإضاءة لا يكون إلاّ بالتلف وضرب العنق .

كل هذا يدل على أن المصائب تصهره وتقويه ، مثلما كانت مصائب الطغرائى تصهره وتقويه ، ولكن ربما كانت مصائب الطغرائى أقوى منه .

ولهذا وجدنا الطغرائى يوضح قوة ما يعانيه ، مبيِّناً أن عمود الشمع برغم ما يلاقيه من ضرب للعنق ، ومن نحول ، واصفرار ، فالطغرائى يمر بكل هذا إلاّ أنه يزيد عنه فى الإحساس بالبؤس والشقاء ، بل ويذهب إلى أبعد من هذا . يقول : لو افترضنا أن عمود الشمع يتساوى معه فى كل شيء فى حرقه القلب ، والسهاد طول الليل ، ولكن يظل هذا فى الليل فقط ، ولكن يستريح ويتنعم مع الصباح وطول النهار ، أما أنا فعذابى مستمر لا يتوقف ليلا ونهاراً .

لقد عبر الطغرائى عن حالته وحالة عمود الشمع باستخدام بعض المفردات السلبية والتى تعبر عن مأسى كل منهما والتى هى فى الحقيقة مأسى الطغرائى وحده فاستخدم " البكاء ، مساهر ، مدامع ، يصاب ، يموت ، داء ، غرثان ، فناء ، تلف ، بؤس ، شقاء ، حرقة القلب ، السهاد ، الدجى ، معذّب "

واستخدم بعض المفردات التى توضح حالته الإيجابية مع عمود الشمع مثل : " يؤنسنى ، حياة ، القوة ، الشفاء " وكلها تعبر عن حالة وقتية ، ثم يختص عمود الشمع ببعض المفردات التى تدلل أن معاناته اقل من معاناة الطغرائى فاستخدم " وادع التى تدل على الثبات والاستقرار طول النهار ،

ومرفّه أى منعم " والكلمتان تدلان على راحة عمود الشمع طول النهار ، فــى مقابل عذاب الطغرائى فى الليل والنهار وبصفة مستمرة .

ولكن حتى مساعدة هذا العمود الذى استعان به الطغرائى لم تستمر ، لأنه سرعان ما يصدم بالفناء المقدّر ، وكأن الأيّام تستكثر على الطغرائى أن يُستأنس حتى من الجمادات ، ولكن لا بأس أن يستبدل عمود بعمــود آخــر ، ولكن الكل يشترط أن يعمل مع الليل فقط ويتركــه طــول النهــار . يقــول الطغرائى فى مقطوعة أخرى مركزاً على نفس الحالة التى لا تتغيّر : [1]

ومــــروّحٍ ســــرّى ســــرورُ لقائـــه
لـــولا اتصــــال فنائــــه ببقائــــه
يحكــى القضــيب قوامُـــه ونحولُـــه
حسناً وضوءُ البدر مــن أســمائه
فيســــرّنى لــــيلا بحســــن وفائــــه
ويسوؤنى صــبحاً بقــبح جفائــه
يشكو الحنين إلــى الأليــف ويغتــدى
كــلٌّ يعلّــلُ نفســه برجائــــه
أبكـــى فيبكـــى غيـــر أنَّ دموعـــه
صِرْفٌ ، ودمعى ممــزج بدمائــه
أُعدِى عليــه لظــى فــؤادى فــالتقى
نارٌ تُحدِّثُ عــن لَظَــى بُرَحائِــه
أمُعـــذَّبٌ والنــــارُ فـــى عَذَباتـــه
كمعــذَّبٍ والنــارُ فــى أحشــائه

---

[1] – الديوان ، ص ٤٣ .

فالطغرائى يعبر عن سروره وفرحه بلقاء عمود الشمع ، ربما بسبب الوعاء الزمنى الذى يظهر فيه ، لأن عمود الشمع لا يظهر إلاّ مع الليل ، فخلوة المهموم مع الليل قد تقتله ، ولهذا وجدنا الطغرائى يسعد بعمود الشمع لأنه الوحيد الذى يؤنسه مع رهبة الليل ووحشته . إلاّ أن الطغرائى كان يحتاج أن يكون عمود الشمع بجانبه فى الليل والنهار ، وهذه دلالة على أن الطغرائى قد فقد الأمن والأمان فى الليل والنهار ولكنه فى النهاية يقبل منه العذر ، فهو أفضل ممن تركوه ليلاً ونهاراً .

ثم يعود الطغرائى مرة أخرى ليبين أن معاناته ومأساته أقوى من معاناة عمود الشمع ومأساته ، فالطغرائى يبكى دماً مخلوطاً بالدماء أى أن بكاءه متغلغل فى كل جسمه ، أما عمود الشمع فيبكى دموعاً نقية غير مخلوطة كما أن النار فى عمود الشمع لا تكون إلاّ فى رأسه فقط ، والذى عبّر عنه بالعذبات ، أما عذاب الطغرائى فيمزق ويحرق كل أحشائه .

تجربة إنسانية مريرة لم يرد الطغرائى أن يسقطها بكاملها على الشمعة رفقاً بها ، وحتى لا يكون ظالماً ، وهو يعانى مرارة الظلم ، ولهذا وجدناه عندما يشتكى للشمعة ناراً ملتهبة فى قلبه ، وجدها تشتكى نفس الداء ، فرّق لها واكتفى بأنها تعيش نفس تجربته .

ولهذا وجدنا الطغرائى يعرض الشمعة التى يضرب بها المثل فى الصبر والتجلّد والاحتمال على أنها أقل منه تحملاً وتجلداً ومعاناة . ولهذا وجدناه لا يتشبه بالشمعة بل الشمعة هى التى تتشبه به . يقول متحدثاً عن الشمعة بلغة المؤنث ، ربما لأن عزيمته قد خارت [1] :

---

[1] – ديوان الطغرائى ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

تشــبَّهتْ بــى طــولَ الليــل ناحلـــةٌ
صفراءُ أفنى قُواها الــدمع والأرق

لها مــن النــار روحٌ فــوق مَفرِقهــا
تدبُّ فيها ولا يبقــى لهــا رَمَــقُ

تكابــــد الليــــلَ تُفْنيــــه ويأكُلُهــــا
والليل يضحك إذ تبكى وتحتــرِقُ

فقلتُ : ما أنتِ مثلى . أنت فــى دَعَــةٍ
طولَ النهارِ ويَــوْمى كُلُّــهُ قَلَــقُ

فالشمعة تتشبه بالطغرائى فى السهر والضعف والاصــفرار والــدمع والقلق والمكابدة . إلاّ أنها ليست مثل الطغرائى لأن معاناة الشمعة كمــا مــرّ تكون فى الليل فقط أما معاناته ففى اليوم بأكمله .

إلاّ أن الطغرائى قد نقل المعركة بينه وبين مجتمعه إلى معركة بــين الليل والشمعة ، فالشمعة تقضى على الليل فتصىء ظلامه إلاّ أن هذا يكــون على حساب جسمها وعمرها حيث يتناقصان بالتلازم ، فعطاؤها مقترن دائماً بالفناء ، كما أن عطاء الطغرائى وتميزه هو الذى عجل بنهايته ألم نقل : إنــه الرجل الذى قتله فضله .

وهكذا وجدنا الطغرائى ينقل الشمعة إلى محيطه المادى والمعنوى ، لا ليقيس عليها معاناته باعتبارها المثل ، ولكن ليوضح أنه يقاســى أكثــر ممــا تقاسيه حيث إنه يحتمل مثلما تحتمل ولكنه يفوقها بعدة أشياء منها :

- أنه يفضلها فى الإحساس بالبؤس والشقاء فهو بشر وهى جماد .
- أنها تعذب فى الليل فقط أما هو فيعذب فى الليل والنهار .

- أن دموع الشمعة نقية غير مختلطة أما دموعه فممزوجة بالدماء .
- أن نار الشمعة فى رأسها فقط ، أما نار الطغرائى ففى داخل أحشائه .

ولكن برغم هذا لم يجد الطغرائى أفضل منها يأتنس به فى زمن جفاه فيه الصديق ، وعزّ فيه الصاحب . وبقى الطغرائى من شمعته فـــى موضـــع الرأس على الدوام .

* * *

وتنتهى رحلة الشمعة مع أسامة بن منقـذ (ت ٥٨٤هـــ) ليصـــف الشمعة بالصبر والكرم مثلما اتصف هو بهما " فأسامة بن منقذ من أكابر بنى منقذ ، أصحاب قلعة شيْزر ، وعلمائهم وشجعانهم ، له تصانيف عديـــدة فـــى فنون الأدب " [١] وقال العماد : وأسامة كاسمه فى قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه أمارةُ الإمارة ، ويؤسس بَيْتُ قريضه عمارة العبارة ، حلو المجالســـة ، حالى المُساجلَة ندىَّ النّدى بماء الفكاهة ، عالى النجْم فى سماء النباهة ، معتدل التصاريف مطبوعُ التصانيف ، أسكنه عِشق الغوطة ، دمشق المغبوطة " [٢] .

إلاّ أن الرجل برغم فضله وأدبه وإمارته إلاّ أنه تعّرض لمحنة شديدة هو وأهله . فقد قيل : " ما زال بنو منقذ هؤلاء مالكى شيْزر ، وهى حصـــن قريبٌ من حماة ، معتصمين بحَصَانتِها ، ممتنعين بمناعتها ، حتـــى جـــاءت الزّلزلة فى سنة نيفٍ وخمسين ، فخرَّبَت حصنها ، وأذهبت حُسْـــنها وتملّكهـــا نور الدين محمود بن زنكى عليهم ، وأعاد بناءها ، فتشعبوا شُـــعبا وتفرّقـــوا أيدى سبا" [٣] .

---

[١] - وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص ٦٣ .

[٢] - معجم الأدباء ، جـ٢ / ١٠٣ .

[٣] - نفسه ، ص ١٠٣ ، وتفرقوا أيدى سبا : أى تبددوا تبدداً لا اجتماع بعده ، وذلك نســـبة إلى سبا ، ، والد قبائل اليمن التى تفرقت على أثر سيل أغرق ديارها .

وبعد هذه المحنة القاسية ، التى شتت شمل آل منقذ وأنزلتهم من منزلة السيادة إلى حاجة الباحث عن مأوى ، ينتقل أسامة إلى مصر فبقى بها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم ، ثم عاد إلى الشام ، وسكن دمشق مخصوصاً بـالاحترام إلى أن نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فيذهب إلى حصن كيفا مقيما بها فـى ولده مؤثراً لها على بلده ، وظل إلى أن مات ودفن بجبل قاسيُون " [١] .

وهكذا كان أسامة بن منقذ رجلا نزل من عزّ الإمارة إلى الباحث عن عنوان ، بعد أن غاب عنوانه وتشتت أهله ، ولكنه برغم انكسـاره وصـبره عاش بكرم الأمير ومحيا الأمير . ومن ثم كانت شمعته تحترق لكنها تصـبر وتضىء وهكذا كان أسامة يكتم احتراقه ويضىء كرما وعطاءً . يقول أسامة فى الشمعة [٢] .

انظر إلى حُسن صبر الشمع يظهر للرْ
رائين نوراً وفيـه النـار تسـتعرُ
كـذا الكـريمُ تـراه ضـاحكا جَـذلا
وقلبـه بـدخيل الغـمِّ مُنْفَطِـرُ

وهل كان أسامة بن منقذ إلاّ صابراً كريما .

ولكن أسامة لم يستمر فى كتمان لواعجه وأحزانه فسرعان ما يستدعى الشمعة أنيسة المكلومين ليبثها آلامه ومآسيه ، فهى تشبهه فى النحول والتسهيد

---

١ - معجم البلدان ، جـ٢ / ١٠٣ ، وفيات الأعيان ، جـ١ / ٦٣ .
٢ - معجم الأدباء ، جـ٢ / ١٠٦ .

واللون والدمع ، ولكنها حبيبة إليه أيضاً لأنها هى التى تحدد ما يرى ومـــا لا يرى ، ولكنه لأنه جميل النفس لا يرى منها إلاّ الملاحة والجمال . يقول [1] :

أنيسى فـــى ليـــل القطيعـــة مشـــبهى
نحولا وتسهيدا ولونـــا ، وأدمعـــا
أواجـــه وجهـــا منـــه حيـــث رأيتـــه
منيـــراً إلـــى مـــن أمَّـــهُ مُتطلَّعـــا
كمُلْبس جسمى سُـــقْم جفنيـــه حيثمـــا
بدالى عاينـــتُ الملاحـــة أجمعـــا

وهكذا جاءت شمعة ابن منقذ كريمة صابرة ككرم صاحبها وصبره ، أحبها واعترف بفضلها حتى وهو يرى بجفنها السقيم وحتى لو أرتـــه الوجـــه الواحد عدة أوجه .

وهكذا وجدنا الشعراء لم يكتفوا بوصف الشمعة وتأملها فقـــط ، بـــل جعلوا منها كائناً حيًّا ، يحس بهم فيبثونها أحزانهم وأتراحهم ، ويخلعون عليها مشاعرهم حتى إن كل شاعر كان يرى فيها نفسه .

---

[1] - ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠٤ .

الفصل الثالث

شـــعر الشـــمعة

نظرات فنية

من الملاحظ فى شعر الشمعة أن السمة الغالبة عليه هى نظام المقطوعات الشعرية القصيرة لا القصائد الطوال . ولم يكن السبب فى هذه الظاهرة يعود إلى عجز المقطّعين عن التطويل كما يرى حازم القرطاجى فى منهاج البلغاء فى حديثه عن الفرق بين المقصدين والمقطِّعين [1] ، لأن معظم الشعراء الذين وقفوا عند الشمعة وتأملوها تشهد دواوينهم بقصائدهم الطويلة والتى تزيد عدداً عن مقطوعاتهم .

كما لم يكن سبب التقصير أن الشعراء أوجزوا واختصروا ليُحَفَظ عنهم كما أورد ابن رشيق القيروانى فى العمدة [2] . لأن الشاعر فى الشمعة لم يكن يكتب لجمهور يحفظ عنه أو لمتلقٍ خارجى يتلقف ما ينشد .

ولكنّ الشاعر عندما كتب عن الشمعة فإنه كان يصفها فى لحظة تأمل سريعة لأن الشمعة مركب بسيط غير معقد لا يستدعى التطويل . أو أنه أراد أن يعبر عن حالة امتزاج نفسى بينه وبينها وفى هذه الحالة كان يكتب لنفسه فقط ، إنه يعبر عن حالة نفسية منفردة فما جدوى المقدمات ؟ ، وما جدوى الخواتيم ؟ ، وما جدوى حسن التخلص والانتقال ؟ ، وما جدوى التشكى من الرحلة وتعب الراحلة ؟ مادام شعر الشمعة فى أغلبه يعبر عن صوت داخلى فقط ، صوت يرتد إلى الذات فيُحبس ويخرج نفثات وآهات شعورية .

إن الشاعر وهو يكتب عن الشمعة ما أراد أن يُشعر ولكنه أراد أن يتنفس بصدر كأنّه يصّعد فى السماء . فجاءت أبياته الشعرية على قدر الحالة الشعورية التى تنتابه والتى يستغرقها عادة فى لحظات بسيطة فلماذا التطويل

[1] – انظر : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

[2] – انظر العمدة : جـ١ ، ص ١٣٣ .

إذن ؟ إنه يتحدث عن ذاته أو عن شيء يشبه ذاته ألم يمر بنا قول الفـاروقى وهو يتحدث عن الشمعة [1] :

ونديمة لى فـى الظـلام وحيـدةٍ
مثلـى مجاهـدة كمثـل جهـادى
فاللون لونى والـدموع كـأدمعى
والقلب قلبـى والسـهادُ سـهادى
لا فرق فيما بيننا لـو لـم يكـن
لهبى خفيًّـا وهـو منهـا بـادى

أو الطغرائى الذى يجعل من عمود الشمع مساعداً له فى البكـاء لأن الشجى يبعث الشجى يقول فى أبيات مرّت [2] :

ومساعد لى فى البكـاء مسـاهرٌ
بالليـل يؤنسـنى بطيـب لقائـه
سـاويته فـى لونـه ونحولـه
وفضـلته فـى بؤسـه وشـقائه
أفـوادعٌ طـولَ النهـار مرفّـهٌ
كمعـذّب بصـباحه ومسـائه

---

[1] – معجم الأدباء ، جـ٢ ، ٤٦٢ .
[2] – الديوان ، ص ٤٢ .

إلاّ أن حالة الطغرائى أصعب بكثير من حالة عمود الشمع لأن الشمع يتعب ليلا ويرتاح نهاراً ، أما الطغرائى فتعبه ليل نهار . ألم نقل أن شعر الشمعة يعبر عن حالة شعورية لا تستدعى التطويل !

أما قصيدة الأرّجانى [1] فى مدح عماد الدين طاهر بن محمد قاض قضاة فارسْ ، والتى يبلغ عدد أبياتها تسعة وتسعين بيتاً ، فإنه جعل لها مقدمة طويلة فى وصف الشمعة تبلغ هذه المقدمة أربعة وأربعين بيتاً ، ويعد هذا أطول ما قيل فى وصف الشمعة .

وكأن الأرَّجانى أراد أن يستخدم مقدمة جديدة غير معهودة ، فلم يعرف أن شاعراً قبله جعل من الشمعة مقدمة لقصيدة ، ولكن الأرجانى فعلها رغم أنه أطنب واسترسل ، فنراه يصف الشمعة جامعاً كل النعوت التى تحدث فيها الشعراء فى مقدمته للمديح ، ثم نراه يسقط عليها حالته النفسية وهمومه التى يكابدها ، وكأنه استبدل ما كان يصفه الشاعر القديم من وصف التعب الذى كان يعانيه هو وراحلته وهو فى طريقه إلى الممدوح بشمعة تقاسى ويقاسى مثلها وأكثر رغم علو منزلتهما ، ثم ينتقل إلى الممدوح فى حسن تخلص بارع .

ولنتابع معه بعض أبيات هذه المقدمة الطويلة فنجده فى بداية القصيدة يستخدم التصريع كعادة الشعراء فى مقدمات المطولات ثم يصف الشمعة ، فيرى أن الشمعة تدخل على الليل فتفضح أسراره التى كان يخفيها ، ولكنها من أجل ذلك تلاقى الأمرّين ، فقلبها يخرج من فمها عبر نار مشتعلة فى رأسها ، يصيبها الهزال والمرض ، طول لسانها يجر عليها قطع عنقها على

---

[1] - انظر ديوان الأرَّجانى ، جـ٢ ، ص٣٥٩ وما بعدها ، والأرَّجانى : هو أحمد بن محمد الحسين ، أبو بكر ناصح الدين ، شاعر ، فى شعره رقةٌ وحكمة ، عربى المحتد سلفه القديم من الأنصار ، ت ٥٤٤ .(انظر الأعلام ، جـ١ ، ص ٢١٥ ، معاهد التنصيص: جـ ٣/ ٤١).

الدوام ، تعيش غارقة فى دموعها ، تتنفس نفس المهجور الذى قطعه أهله منذ فترة طويلة ، فبات يبكى على ذكراهم بكاءً حاراً .

هذه الشمعة نهايتها الموت والهلاك ، حتى أنّ النسيم العليل الذى يحيى الأرواح ويسعدها هو سم زعاف بالنسبة للشمعة . يقول [1] :

نمَّتْ بأسرار ليــلٍ كــان يخفيهــا [2]
وأطلعت قلبها للنــاس مــن فيهــا
قلب لها م يرعنــا وهــو مُكــتمنٌ
إلاّ برقيــة نـــار مـــن تراقيهـــا
سقيمةٌ لم يزل طول اللســان لهــا
فى الحىِّ يَجْنى عليها ضرب هَاديها
غريقةٌ فى دُمُوع ، وهى تُحرِقُهــا
أنفاســـها بـــدوامٍ مـــن تلظّيهـــا
تنفَّست نفسَ المهْجُور إذ ذكــرتً
عهد الخليط فبات الوَجْــدُ يُبْكيهــا
يُخْشى عليها الردى مهما ألمّ بهــا
نَســـيمُ ريـــحٍ إذا وافـــى يُحَيِّيهـــا

ثم ينتقل ليتحدث عن فوائد الشمعة عبر عدة تشبيهاتٍ مختلفة : فيجعل منها شهابا يشق وجه الأرض فى المساء مشعلا نواصيها ، مفضلا موقعه فى

---

[1] – نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ، ص ١٢٠ .

٢– فى الديوان (كاد) ، انظر جـ٢ ، ص ٣٥٩ .

الأرض عن السماء . أو يجعل من الشمعة غرّة بيضاء ظهرت لتنير الليالى الداجية السوداء ، أو هى ضَرّة للشمس تظهر فى غيابها فتملأ الأرض نوراً وضياءً ، بل هى حد رمح يلمع حاصداً عساكر الليل . يقول [1] :

بدت كنجم هوى فى إثر عفرية
في الأرض فاشتعلت منها نواصيها
نجمٌ رأى الأرض أولى أن يُبَوّأها
من السماءِ فأمسى طَوْعَ أهْلِيها
كأنّها غُرّةٌ قد سال شادخُها
فى وجه دَهْماءَ يُزْهيها تَجَلّيها
أو ضَرَّةٌ خُلِقَتْ للشمْس حاسدةً
فكلّما حُجِبَتْ ، قامت تُحاكيها
وَحِيدةٌ كشَبَاة الرُمْح هازمةٌ
عساكرَ الليل إن حَلَّتْ بوَاديها
ما طَنَّبت قطُّ فى أرض مخيَّمة
إلاّ وأقمَر للأبصارِ دَاجيها

ثم ينتقل الأرّجانى ليتحدث عن العديد من غرائب الشمعة : أسفلها يمد أعلاها بالحياة ، حياتها فى قتلها وحرقها ، ثمارها ضوء أحمر اللون ، ساهرة طوال الليل ، جلدها أصفر ، شعلتها حمراء ، ذوائبها سود ، لياليها بيض ، تمد الليل بالنور وهى تنتحر ، فُصّل ثوبها من الداخل وليس من الخارج ،

[1] - نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ١٢٠ .

معتدلة القوام ؛ ولكن دائماً تقص لمّتها ، تقضى ليلها مفتوحة العين ، تمرض ولا تشفى إلاّ بقطع عنقها ، يقول:

لها غرائبُ تَبْدُو مــن محاســنها
إذا تفكّــرت يَوْمــاً فــى معانيهــا
كصَعْدةٍ فى حشا الظَّلْمَاء طاعنــة
تَسْــقِى أسـافِلُها ريّــا أعاليهــا
كالوَجْنَةُ الــوَرْدُ إلاّ فــى تناولهــا
والقامةُ الغُصــنُ إلاّ فــى تَثْنيهــا
صَفْراءُ هنْديَّةٌ فى اللون إن نُعتــتْ
والقدِّ واللين إن أتممْــت تَشْــبيها
فالهنــدُ تَقْتُــلُ بــالنيران أَنْفُسَــها
وعنــدها أنّ ذاك القَتْــلَ يُحْيِيهــا
وَرْدٌ تُشَاكُ به الأيْــدى إذا قُطِفَــتْ
وما على غصنها شــوك يُوَقِّيهــا
ما إن تزالُ تَبيتُ الليــلَ ســاهرة
وما بها غُلّةٌ فى الصَّــدرِ تُطْفيهــا
صُفْرٌ غَلاَئلُها ، حُمْــرٌ عمائمُهــا
ســودٌ ذوائبُهــا ، بــيضٌ لياليهــا
تُحْيِى الليالىَ نُوراً وهــى تَقتلُهــا
بئس الجزاءُ لعَمْــرُ الله تجزيهــا !
قُدَّتْ على قَدِّ ثــوب قــد تبطّنهــا
ولم يُقَدِّرْ عليهــا الثــوبَ كاســيها
غَرَّاءُ ، فَرْعاء مــا تنفــكُّ قاليــةً
تقــصُّ لمَّتهــا طــوْراً وتَفْليهــا

شَبَّاءُ شـعثاءُ لا تُكْسـى غـدائرها
لَـونَ الشـبيبةِ إلاّ حـينَ تُبْليهـا
قَنَـاةُ ظلمـاءَ لا تنفـك يأكلهـا
سنانُها طـولَ طَعْـنٍ أو يُشَـظِّيها
مفتّوحةُ العين تُفنـى ليلهـا سَـهَراً
نَعَـمْ ، وإفناؤهـا إيّـاه يُفْنيهـا
وربُّما نال مـن أطْرافهـا مـرض
لم يُشفِ منه بغير القَطْع مُشْـفِيها

ثم ينتقل الأرَّجانى ليمزج همومه ومتابعه بهموم الشمعة ومتاعبهـا ، ولكنه يفقها فى كل شىء ، فهى مسعدة وهو مهموم ، هى تظهر أسرار ليـل يحاول هو إخفاءه هى تبكى بدمع جارٍ وهو يخفى دموعـه خـوف الواشـين مصيرها مرسوم ومعروف ، أما هو فلا ، ليس لها مطالب ولم تبتعـد عـن أحبتها كما ابتعد ، ولا كابدت حساداً مثلما يكابد ، يقل [1] :

وَيْلٌ أمِّها فى ظلام الليـل مُسْـعِدةً
إذا الهُمومُ دَعَتْ قلبـى دَوَاعيهـا
لـولا اخـتلاف طِباعَينـا بواحـدة
وللطباع اخـتلاف فـى مَبَانيهـا
بأنها فـى سَـوادِ الليـل مُظهِـرَةٌ
تلك التى فى سَواد الليـل أُخْفِيهـا
وبيننـا عَبَـراتٌ إن هُـمُ نظـروا
غيَّضتُها خَوْف واشٍ وَهْى تُجْرِيها

---

[1] – ديوان الأرّجانى : جـ٢ ، ص ٣٦٢ .

ما عاندَتْها الليـالى فـى مطالبهـا

ولا عَدَتها العَوادى عَـنْ مَباغيهـا

ولا رَمَتْهـا ببعُـدٍ عـن أحبَّتهـا

كما رَمَتْنى ، وقُرْبٍ من أعاديهـا

ولا تُكابـدُ حُسّـاداً أكابُـدها

ولا تُداجى بنـى دَهْـرٍ أُداجيهـا

ولا تَشَكّى المطايا طُـولَ رْحلتهـا

ولا لأرْجُلِهـا طـرْداً بأيْـديها

أبْدَت إلىَّ ابتساماً فى خـلال بُكـىً

وَعَبْرتى أنا عَضُّ الحُزنِ يُمْريهـا

ثم نراه ينتقل فى حسن تخلص إلى الممدوح . يقول :

فقلت فى جُنحْ لَيْـلٍ وَهْـىَ واقفَـةٌ

ونحن فى حَضْرَةٍ جَلّـتْ أياديهـا

لو أنّها علمت فى قرب ن نُصـبتَ

من الوَرى لثَنَتْ أعطافهـا تيهـا

من مثلها حين رَدَّتَ عينهـا فـرأت

خِدَن النَّدىَ وَهْوَ مُحْتَـلٌ بناديهـا

ثم يخاطب الممدوح مباشرة :

لك القِراءَةُ فيهـا والقِـرى جُمعـاً

فَأنْـتَ قارئهـا نُسـكاً وقَاريهـا

ومن هنا نرى أن الأرجانى جعل من وصف الشمعة مقدمة لقصـــيدة المديح حتى وإن أطنب وأطال . ولعلنا نستطيع أن نقول إن الأرّجانى أضاف مقدمة جديدة لمقدمات الشعر فى العصر العباسى هى " المقدمة الشمعية " وفى هذا توظيف فنى جديد للشمعة .

فإذا انتقلنا إلى **الصور الفنية** فى شعر الشـــمعة لوجـــدنا أن الشـــعراء أجادوا وأبدعوا فى رسم صورة الشمعة باعتبار الشمعة مشبها ، ومن الأمثلـــة على ذلك فى الغرابة والحسن ، قول ابن الخلال فى تشبيه الشمعة [1] :

وصحيحة بيضاء تطلع فى الدجى
صبحاً وتشفى النـــاظرين بـــدائها
شـــابت ذوائبهـــا أوان شـــبابها
واســـودّ مفرقهـــا أوان فنائهـــا
كالعين فـــى طبقاتهـــا ودموعهـــا
وســـوادها وبياضـــها وضـــيائها

أو قول السّرّى الرّفاء وهو يشبّه استقامتها بعنق ذكر الظلم وهو بغير منقار أو كالنخلة التى بغير سَعَفٍ . يقول [2] :

وشمعة فـــى يـــد الغـــلام حكـــت
عنـــق ظلـــيم بغيـــر منقـــارِ
تبكى إذا نار شـــوقها اضـــطرمت
بدمع تبـــر مـــن الأســـى جـــارى
كأنّهـــا نخلَـــةٌ بـــلا ســـعف
تحمـــل أُتْرجَّـــةً مـــن النـــار

[1] – خزانة الأدب : جـ٢ / ٣٨٩ .

[2] – ديوان السّرى الرفاء ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

أو قول المأمونى الذى يشبه شعلتها وهى تهتز فى ماء البرك بالبـــدر الحائر بين النجوم فى السماء . يقول [1] :

وشـــمعة وســـط أيمـــن البـــرك
تميس فى المــاء مــيس مرتبــك
كأنّها البدر فـــى الســـماء ســـرى
فحــــار فــــى أوجــــه الفلــــك

أو قول أبو عبد الله المُغَلِّس وهو يشبه اهتزاز ضوء الشـــمعة بأيـــادٍ تتضرع مهتزة من الخوف فجاءت تطلب الأمانا . يقول [2] :

كـــأنّ الشـــموع وقـــد أطلعـــت
من النار فـــى كـــل رأس ســـنانا
أنامــــلُ أعــــدائك الخــــائفين
تضـــرّع تطلـــب منـــك الأمانـــا

ولكن قلّ فى الشعر استخدام الشمعة كمشبّه به ، أى تستخدم الشـــمعة فى رسم صور لأشياء أخرى . ألاّ أن الطغرائى يصف جفـــوة غلامـــه مـــع إحسانه إليه بالشمع والنار ، فالشمع يحيى النار والنار تتلفه يقول [3] :

[1] – الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى : جـ١ / ٤٩٤ .
[2] – خاص الخواص للثعالبى ، ص ٢٠٠ .
[3] – ديوان الطغرائى ، ص ٢٥٧ .

من مُنصفى من ظلوم صار فى يده
حُكمِى فأنكر حَقىَّ وهــو يعْرِفُــهُ
وكيف يَرْجُو فلاحاً فى حكومتــه
من أمْرُهُ فى يَدَىْ من ليس يُنْصِفهُ
يُسِئُ بى عِنْدَ إحسانى إليــه فــلا
شكواى تُجْدِى ولا بلواى تُعْطفُــهُ
إنِّى وإيَّــاهُ فـــى بّــرى وجفوتــه
كالشمع والنــار يُحييهــا وتُتْلفُــهُ

كما شبه أسامة بن منقذ الكريم بالشمعة فى عطائها واحتراقها أيضاً : يقول [1] :

انظر إلى حُسن صبر الشمع يظهر للرْ
رائين نوراً وفيــه النــار تســتعر
كــذا الكــريم تــراه ضــاحكا جَــذلا
وقلبـــه بـــدخيل الغــمِّ منفطــرُ

وربما يعود قلة استخدام الشمعة كمشبه به إلى قلة من يشبه الشمعة فى الواقع .

وقد يستخدم الشمع فى بعض التعبيرات المأثورة ومنه **أضاء له أصابعه العشرة شمعا** ، وهذا التعبير تستخدمه العامة بكثرة إلاَّ أنه قد ورد فى الشــعر أيضاً . قال شاعر فى صديق له يقال له شمس [2] :

---

[1] معجم الأدباء : جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

[2] – خزانة الأدب للحموى ، جـ٢ ، ص ٧١ ، وضائع : أى لا يظهر لونه .

يـــا شـــمس أشـــعلت شـــمعاً

عليـــك عشـــــر الأصـــــابع

رغمـــاً لمـــن قـــال قبلـــى

الشـــمع فـــى الشـــمس ضـــائع

☯ ☯ ☯

وبالنسبة **للمحسنات البديعية** نجد أن شعر الشمعة يغلب عليه الطباق والمقابلة ، وربما كان سبب ذلك أن الشمعة فى الأساس تقوم على الثنائيـات المتناقضة : كالنور ، والظلام ، والصحة والمرض ، والبقـاء والفنـاء ، أو الحياة والموت .

ومن أمثلة الطباق فى شعر الشمعة :

عريانـــة باطنهـــا مكتســـى

فأعجـب لهـا كاسـية عاريـة

تأتيك ليلا كما يأتى المريب فـإن

لاح الصباح طواها دونك الحـذر

وهيفـاء مـن نـدماء الملـوك

تزيـد فيـنقص مـن قـدرها

إذا أضحكت جنح داجـى الظـلام

بكت فجرى الـدمع مـن نحرهـا

فلا تعجبوا من ضحكها وابتسامها

فقد تدمع الأجفان من كثرة الضحك

ألا ساعدينى طـول ليلـك إننـا

سنفنى إذا جاء الصـباح جميعـا

تحيي الليالي نُوراً وهــي تقتلهــا
بئس الجــزاءُ لَعَمْــرُ الله تُجْزيهــا

تكابــد الليــل تفينـــه ويأكلهـــا
والليل يضحك إذ تبكي وتحتــرق

غرثان يأخذ روحه مــن جســمه
فحياتــــه مرهونــــة بفنائــــه

ومُــرّوح ســـرّى ســـرور لقائــه
لـــولا اتصـــال فنائـــه ببقائـــه

تجـــزّ لإصـــــلاحها رأســـــها
فإفســـادها عنـــد إصـــلاحها

لاح لنـــــا فــــى مغــــرب
فرّدنـــــا فــــى مشــــرق

ومن أمثلة المقابلة :

أفـــوادع طـــول النهـــار مرّفـــه
كمعـــذب بصـــباحه ومســـائه

فيســـرني لـــيلا بحســـن وفائـــه
ويسوؤني صـــبحاً بقـــبح جفائـــه

وبصـــــيرة ليـــــل ولكنهـــــا
ضـــريرته عنـــد إصـــباحها

وهكذا نجد أن اعتماد شعر الشمعة على الطباق والمقابلة بالذات أساسه التناقض الشديد فى حياة الشمعة ، والمبنى على الثنائيات المتناقضة كما أشرنا

☯ ☯ ☯

ومن الملاحظ أيضاً على شعر الشمعة **غلبة الأساليب الخبرية على الأساليب الإنشائية** . فالشعراء استخدموا الأساليب الخبرية بكثـرة ملفتـة وربما كان تفسير ذلك أن الشاعر فى شعر الشمعة لم يقصد أن يخاطب بشعره متلقياً خارجياً فيتوجه إليه بالطلب أو الأمر وخلافه إنّما شعر الشمعة عنده كان يدور فى دورة داخلية تبدأ منه وتنتهى إليه ، حتى عندما اسـتخدم الشـعراء الأساليب الخبرية اعتمدوا على النوع الأول منها ؛ الخبرية الابتدائية التـى لا تحتاج إلى أى مؤكد على الإطلاق ، لأنهم أرادوا أن ينفثوا عن أنفسـهم فـلا يهمهم من يسمع .

والشعراء عند استخدامهم للأساليب الخبرية يزاوجون بـين اسـتخدام الجمل الاسمية والجمل الفعلية ، فالجمل الاسمية تفيد بأصل وضـعها ثبـوت شىء لشىء ليس غير [1] ، ومن أمثلتها قول الطغرائى :

ومساعد لـى فـى البكـاء مسـاهر
بالليـل يؤنسـنى بطيـب لقائـه

هامى المـدامع ، أو يصـاب بعينـه
حامى الأضالع أو يمـوت بدائـه

أما الخبرية الفعلية فموضوعةٌ أصلا لإفادة الحدوث فى زمن معـين ، أو تفيد الاستمرار التجددى [1] . فمن أمثلتها قول الطغرائى أيضاً :

---

[1] - علم المعانى : د. عبد العزيز عتيق ، ص ٥٠ ، دار النهضة العربية ببروت ، ١٩٧٤

تشـــبهت بـــى طـــول الليـــل ناحلـــةً
صفراء ، أفنى قواها الدمع والأرق

تكابـــــد الليـــــل تفنيــــه ويأكلهـــــا
والليل يضحك إذ تبكى وتحتــرق

أو قول الببغاء :

تلبسن من شـــمس الأصـــيل غلائـــلا
فأشرقن فى الظلماء بالخلغ الصفر

تبكـــى علـــى أحشـــائها بجســـومها
فأدمعها أجســـامها أبـــداً تجـــرى

أما عن استخدام الأساليب الإنشائية نجد أن الشعراء استخدموها بقلـــة لدلالات تتصل بذواتهم أيضا . ومن أمثلة استخدامها استخدام النهى للالتماس . كما فى قول المعرى :

فلا تعجبوا من ضـــحكها وابتســـامها
فقد تدمع الأجفان من كثرة الضحك

والنداء للاستغاثة كقول ابن ما كولا :

ألا ســـــاعدينى طـــول ليلــــك إننـــا
سنفنى إذا جاء الصـــباح جميعـــاً

والاستفهام للنفى كقول الطغرائى :

أفـــــواداع طـــــول النهــــار مرّفــــه
كمعـــذّب بصـــــباحه ومســـــائه

---

[1] - نفسه ، ص ٥٠ .

وقوله :

أمعـــذّب والنـــار فـــى عذباتـــه
كمعـــذّب والنـــار فـــى أحشـــائه

☯ ☯ ☯

أما بالنسبة للأوزان فى شعر الشمعة نجد أن الشعراء استخدموا معظم البحور الشعرية إلاّ القليل منها ، كما استخدموا الأوزان التامة والمجزوءة .

فمن استخدامهم لبحر الطويل :

أقول ومـــالى مســـعد غيـــر شـــمعة
على طول ليلى ما تريـــد نزوعـــا

وصفراء مثلـــى فـــى هواهـــا جليـــدة
مثلـــى مجاهـــدة كمثـــل جهـــادى

ومن أمثلة البسيط :

ولا دليـــل ســـوى هيفـــاء مخطفـــةٌ
تهدى الركاب وجنح الليل يعتكـــرُ

نشـــبّهت بـــى طـــول الليـــل ناحلـــةٌ
صفراء أفنى قواها الدمع والأرقُ

ومن أمثلة الكامل :

ومُـــرَوّح ســـرى ســـرور لقائـــه
لـــولا اتصـــال فنائـــه ببقائـــه

ونديمـــة لـــى فـــى الظـــلام وحيـــدة
مثلـــى مجاهـــدة كمثـــل جهـــادى

ومن أمثلة المتقارب :

بشـــــمع أعيـــــر قــــدود الرمــــاح
وســــــرج ذراهـــــا وألوانهـــــا

ومجدولــــة مثــــل صــــدر الفتـــاة
تعــــرّت وباطنهــــا مكتســـــى

ومن أمثلة الوافر :

وصُفر مـــن بنـــات النحـــل تكســـى
بواطنهـــا وأظهرهـــا عـــوارى

ومن السريع :

وباخــــلٍ قـــدّم لـــــى شــــمعة
وحالـــه أحـــرق مـــن حالهـــا

مـــا شــــبح يعجـــب مـــن رآه
صـــفرته تخبـــر عـــن ضـــناه

ومن المنسرح :

وشـــمعة فـــى يـــد الغـــلام حكـــت
عنـــق ظلـــيم بغيـــر منقـــارِ

بركـــة صـــفر عمودهـــا شـــمع
تفيض ناراً مـــن موضـــع المـــاء

أما الأوزان المجزوءة فمن مجزوء الكامل :

صـــــفر الجســـــوم كأنّمـــــا
صــيغت مــن الــذهب المــذاب
وإذا عرتهـــــــا مرضـــــــــة
فشـــفاؤها ضــــرب الرقــــاب

ومن مجزوء الرجز :

وباكيـــــات قصــــر الأعمـــــار
بـــأدمع صـــفر لهـــا جـــوار
مجدولـــــــة فــــــى قــــدّها
تحكـــى لنـــا قـــد الأســـل

ومن مجزوء الخفيف :

لــــم أجـــد شــــيئا كشــــيء
يجعــــل الليــــل نهـــــارا
فتأمـــــل مـــــن قريـــــب
شـــجرا يحمـــل نــــارا

وهكذا نجد الشعراء استخدموا جميع الأوزان الشعرية باستثناء بعـض الأوزان والتى ربما عدم الحصول على الشواهد هو السبب فى عدم الإتيـان بها، كما وجدنا الشعراء استخدموا الأوزان: تامة ومجزوءة ، كما اسـتخدموا الأوزان ذات التفعيلين مثل الطويل والبسيط ، والأوزان ذات التفعيلة الواحـدة مثل الكامل والوافر والمتقارب .

أما بالنسبة للقوافى فنجد الشعراء قد استخدموا جميع أنواع القــوافى ما عدا القافية المتكاوسة والتى عادة ما تحدث اضطرابا فى القافية نظراً لكثرة الأحرف المتحركة بين ساكنيها .

ومن أمثلة استخدام القافية المترادفة :

مـــا شـــبح يعجـــب مـــن رآه
صـــفرته تخبـــر عـــن ضـــناهُ

يبكـــى بجفـــن غائـــب كـــراهُ
أدمعـــه تزيـــد فـــى قـــواهُ

ومن القوافى المتواترة :

بركـــة صُـــفر عمودهـــا شـــمع
تفيض ناراً فـــى موضـــع المـــاء

أقول ومـــالى مســـعد غيـــر شـــمعة
على طول ليلى ما تريـــد تزوعـــا

ومن القوافى المتداركة :

لقد أشـــبهتنى شـــمعة فـــى صـــبابتى
وفى طول ما ألقـــى ومـــا أتوقَّـــعُ

ومجدولـــة مثـــل صـــدر الفتـــاة
تعـــرّت وباطنهـــا مكتســـى

ومن القوافى المتراكبة :

وشـــمعة وســط أيمـــن البـــرك
تميس فى المــاء مــيس مُرتبــكِ
قـــوام غصـــن كأنّـــه ألـــفٌ
تهدى لنــا مــن رضــابها لهبــا

أما بالنسبة **لعيوب القافية** فمعظم المقطوعات الشــعرية خلــت مــن العيوب إلاّ فى القليل .

حيث وقع سبط التعاويذى فى عيب الإقواء فى قوله :

وباخـــل قـــدّم لـــى شـــمعة
وحالـــه أحْـــرقُ مـــن حالِهـــا
فمـــا جـــرت مـــن عينهـــا دمعـــةٌ
إلاّ ومـــن عينيـــه أمثالُهـــا

حيث ضم حركة المجرى فى البيت الثانى وكان حقها الكسر كما وقع كشاجم أيضاً فى عيب الإصراف فى قوله :

وصُفْرٌ مـــن بنـــات النحـــل تُكْســـى
بواطنهـــا وأظهرهـــا عـــوارِى
عـــذارى يفتضضـــن مـــن الأعـــالى
إذا افتضت من السُـفْلِ العـذارى

حيث فتح حركة المجرى فى البيت الثانى وحقها الكسر .

أما عن **الموسيقى الداخلية** فلم يحفل الشعراء بتوفيرها ولكن وجدت بعض الأمثلة البسيطة عليها . حيث استخدم الأرّجانى التصريع فــى مطلــع قصيدته التى أشرنا إليها . يقول :

نمّــت بأســـرار ليــل كــان يخفيهــا
وأطلعت قلبها للنــاس مــن فيهــا

فمن المعروف أن عروض البسيط التام مخبونة على الدوام . لكن لأن البيت دخله التصريع انتقلت تفعيلة العروض إلى ما عليــه تفعيلــة الضــرب فدخلها القطع من الخبن أيضاً .

كما استخدم بعض الشعراء الترصيع غير المقفى فى قوله :

وشـــــمعةٌ قُــــدِّمت إلينــــا
تجمـــع أوصـــاف كــلِّ صَــبٍّ

صـــفرة لـــون ، وذوب جســـم
وفـــيض دمـــع ، وحَـــرُّ قلـــب

حيث يتضح تساوى الجمل فى البيت الثانى .

ومن أمثلة الترصيع المقفى :

صـــفرٌ غلائلهـــا ، حُمْــر عمائمهـــا
ســود ذوائبهـــا ، بــيض لياليهـــا

حيث يتضح تساوى الجمل مع اتفاقها فى القوافى .

وفى النهاية نصل إلى **المعجم الشعرى لشعر الشمعة** حيث نجد الشعراء خصصوا مجموعة من التعبيرات لكل سمة من سمات الشمعة ، فللونها تعبيرات ، ولشكلها الخارجى تعبيرات ولقدّها واستقامتها تعبيرات .

وعندما تشتعل الشمعة تبدأ رحلة المرض وأعراضه ، ثم البكاء الذى يتساقط فى صورة شمع منصهر ، ثم قط الرأس الذى يؤدى حتماً إلى النهاية .

والشعراء عندما يتحدثون عن مراحل حياة الشمعة يتحدثون أيضاً عن إضاءتها التى فيها الجدوى من حياتها بمجموعة من التعبيرات .

ولأن الشمعة لها فوائد متعددة اكتسبت منزلة لدى الخاصة بالذات ، ومن هنا جاءت بعض التعبيرات التى تدور حول منزلة الشمعة .

ونحن بدورنا سنحاول أن نجمل هذه التعبيرات التى تتصل اتصالاً مباشراً بالشمعة :

١- اللون :

حيث نعت معظم الشعراء الشمعة باللون الأصفر وذلك باستخدام اللون نفسه ، أو باستخدام بعض الأشياء التى تحمل اللون وتعطى بعض الإيحاءات المصاحبة .

" واللون الأصفر مرتبط بالتحفر والتهيؤ للنشاط وأهم خصائصه اللمعان والإشعاع والإثارة والانشراح .. والأصفر المخضر من أكثر الألوان

كراهية وهو يرتبط بالمرض والسقم والجبن والغدر والخيانة "[1] ، "وكثيراً ما يرتبط بالضعف والذبول "[2] .

ومن هنا وجدنا الشعراء يعبرون عن لون الشمعة بمستويين ، مستوى جمالي إيجابي قوامه الإشراق والانشراح ومستوى سلبي قوامه الحزن والكآبة.

فالمستوى الأول الذي يثير النشاط والتوهّج ، عبروا عنه بما يلي :

أ – الذهب :

فعبروا عن الشمعة بأنها : غصن من الذهب ، قضبان تبر ، أغصان تبر صُفْر ، رمح لجين سنانه ذهب ، عمود من التبر مغموسة في ذهب ، جمارة من ذهب ، ذوائب صُفْر .

ب- ياقوتة صفراء .

جـ – شمس الأصيل : تلبس من شمس الأصيل غلائلَ .

د – الخلع الصفر : أشرقن في الظلماء بالخلع الصفر .

أما **المستوى الثاني** الذي يبعث إلى الحزن والألم . فعبروا عنه بما يلي:

أ – لون المريض : فعبروا عنها بأنها :

صفراء أفنى قواها الدمع والأرق ، وعن عمود الشمع ؛ صفرته تخبر عن ضناه ، وعن الشمع ، صفر الجسوم .

---

[1] – اللغة واللون : د. أحمد مختار عمر ، ص ٢٢٩ .

[2] – اللغة واللون ، ص ٢١٤ .

ب- شكل العاشقين : فعبروا عن عمود الشـمع بأنـه : " يحـاكى رواء العاشقين بلونه " .

وقد غلبت تعبيرات المستوى الأول على وصف الشمعة فى الفصل الأول ، وغلبت تعبيرات المستوى الثانى على علاقة الشمعة بالشاعر فى الفصل الثانى .

٢- الشكل :

حيث تكتسب الشمعة سمة خاصة بها حيث إنها ناعمة ملساء من الخارج ، يلتف شمعها حول نسيج من خيط رفيع من الداخل ، ولهذا عبروا عن عريها وكسائها فى آن واحد .

فعبروا عن العرى بـ " عارية ، قضبان تبر عريت من الورق - عريان الإهاب "

وعن كسائها قالوا : " باطنها مكتسى ، وعن عمود الشمع كسىّ الباطن منه " .

المهم أن الشمعة عارية كاسية فى آن واحد .

٣- قدّ الشمعة :

ولأن الشمعة مستقيمة معتدلة القوام ، رشيقة عبروا عنها بالتعبيرات الآتية : هيفاء ، مخطفّة ، مخطوفة الخصر ، مجدولة فى قدها ، مجدولة مثل صدر الفتاة ، مفتولة مجدولة ، ممشوقة فى قدّها ، تحكى قدّ الأسل ، قوام غصن كأنّه ألف ، تبدى لنا كالغصن ، تحكى القضيب قوامه ، فاتن القد ، قدّ الكعاب ، قضبان ، عمود من التبر ، بشمع أعير قدود الملاح ، كأنّه رمح لجين ، كالنخل بلا سعف .

كل هذه التعبيرات تدل على رشاقة الشمعة واعتدال قوامها . وكلهـا تعبيرات قد تستخدم فى التعبير عن جمال الأنثى ثم استعارها الشعراء للشمعة.

٤- مرض الشمعة :

حيث نعتت الشمعة بالكثير من النعوت التى تصور حالها وما تعانيـه من أعراض تدعو حتما إلى نهايتها ومن هذه النعوت :

(سقيمة ، كالعاشق المدنف ، تكابد الليل ، معذّب الليل إلى ضـحاه ، تلتهب نار الشوق فى حشاه ، فيها النار تستعر ، لهبها بادٍ ، جليدة ، ناحلـة ، تحترق ، وحيدة ، مفردة ، السهاد ، المجاهدة ، تغيير اللون ، السهر ، أفنـى قواها الدمع والأرق ، البؤس ، الشقاء ، فى بلاء وعذاب ، حرقة قلب .

كل هذه النعوت تعبر عن أعراض مادية ومعنوية وما هى إلاّ نعـوت لأعراض مرضية يعانى منها الشعراء أنفسهم ، ثم أسقطوها علـى الشـمعة سميرتهم وأنيستهم .

٥- دموع الشمعة :

ويقصد به الشمع المنصهر الذى يعطى الحياة للشمعة ، حيث عبر عنه الشعراء بالدموع أو البكاء .

فوصفوه بالدموع فقالوا : " أدمعها طوال ليلها سكب ، أدمعه تزيد فى قواه ، يقطر منها أدمع صفر ، جرى الدمع من نحرها ، تحدّر الدمع ، دموعه صرف ، فيض دمع ، أدمعها أجسامها أبدا تجرى ، فلم أر جمراً ذائبـا غيـر دمعها .

وعبروا عن انصهار الشمع بالبكاء فقالوا : باكية ، تبكى ، يبكى بجفن غائب كراه ، باكية على الدجى ، تبكى على أحشائها بجسومها .

فالبكاء والدموع سمتان إنسانيتان خلعهما الشعراء على الشمع أيضاً .

٦- قطّ الرأس :

نجد أن الشعراء استخدموا بعض التعبيرات القوية والمفزعة فى قط رأس الشمعة وكأنّها مخلوق متوحش ، أو شقى يُقتص منه على ذنبه ، فمن التعبيرات التى استعملها الشعراء :

أ – **قص الشعر** : فقد قيل : " إيقاظها القص من شعرها " وهذا التعبير هو أخف التعبيرات .

ب- **قطع الرأس** : فقالوا : " وإن قطعوا الرأس لم تمرض ، تحيا إذا ما رأسها قطعت ، وإن قطعت من الرأس لم تتعس " .

جـ- **ضرب العنق** : فقالوا : " شفاؤها إن مرضت ضرب العنق ، لها من ضرب الرقاب شفاء ، سيافها يضرب أعناقها ، إذا عرتها مرضة فشفاؤها ضرب الرقاب " .

د – **جَزّ الرأس** : فقالوا : " تجزُ لإصلاحها رأسها " .

وقد يأخذنا العجب من استخدام هذه التعبيرات الفظيعة مع شمعة من المفترض أن تتسم بالرقة والجمال يضرب بها المثل فى التضحية . فبدلا من استخدام عبارات الرفق فى كل ما يتصل بها . نجد الشعراء استخدموا معها ما يستخدم مع المجرمين المارقين الخارجين على القانون ، ولكن قد يزول العجب إذا عرفنا أن قطع الرأس أو ضرب العنق كانت اللغة السائدة والبسيطة فى تخلص الساسة من خصومهم ، إنها لغة العصر ، لغة القتل والمصادرة . فلقد روى مسكويه كيف قتل أبو الحسن ابن الفرات وزير المقتدر ، وابنه

المحسِّن . فبعد أن أمر المقتدر بضرب أعناقهما " صـــار نـــازوك – القائــد العسكرى للمقتدر – إلى دار الوزارة بعد الظهر من ذلك اليــوم فجلــس فـــى الحجرة التى كان ابن الفرات معتقلاً فيها ووجّه (بعجيب) خادمه ومعه السودان حتى ضرب عنق المحسّن . وصار برأسه إلى أبيه فوضعه بين يديه فارتـــاع لذلك ارتياعاً شديداً ، وعُرِض هو على السيف ، فقال لنازوك : يا أبا منصور ليس إلاّ السيف ؟ راجع أمير المؤمنين فى أمرى ... فقال له نازوك : قد جَلّ الأمر عن هذا ، وأمر به فضربت عنقه وحمل رأسه ورأس ابنه إلى المقتــدر بالله فأمر بتغريقهما فغُرّقا فى الفرات " [1] .

هذه نهاية وزير وابنه ، ضرب العنق ! ولكن هل سلم المقتــدر مــن نفس المصير . يحكى مسكويه فى أحداث سنة ٣٢٠هـ . " ووافى البربر من أصحاب مؤنس فأحاطوا بالمقتدر وضربه رجل منهم من خلفه ضربة ســقط منها إلى الأرض . وقال : ويحكم أنا الخليفة . فقال البربرى : إياك أطلــب . وأضجعه فذبحه بالسيف ، وكان معه رجل من خلفاء الحجاب طرح نفسه عليه فذبح أيضاً ، ورفع رأس المقتدر على سيف ، ثم على خشبة ، وســلب ثيابــه حتى سراويله ، وترك مكشوف العورة إلى أن مرّ به رجل من الأكرة فســتر عورته بحشيش ثم حفر له فى الموضع ودُفِن حتى عفا أثره " [2] .

هذا مصير خليفة تقطع راس وتكشف عورته . ولكن هل فلت قـــاتلوه من القصاص ؟ لقد لقوا نفس المصير وبنفس الطريقة . يحكى مســكويه فـــى أحداث سنة ٣٢١هـ " ودخل القاهر إلى الموضع الذى كـــان فيـــه (مـــؤنس) و(يلبق) وابنه معتقلين ، فذُبح على بن يلبق بحضرته ووجه برأسه إلى أبيه ،

[1] – تجارب الأمم لمسكوية : جـ١ ، ص ١٣٨ .

[2] – تجارب الأمم لمسكوية : جـ١ ، ص ٢٣٧ .

فلما رآه جزع وبكى بكاء عظيما ، ثم ذبح يلبق ووجه برأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ، فلما رآهما لعن قاتلهما فأُمر به فجرّ برجله إلى البالوعة ، وذبح كما تُذْبح الشاه والقاهر يراه . وأخرجت الرءوس الثلاثة فى ثلاث طاسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس ، وطيف برأس على بن يلبق فى جانبى بغداد ، ثمّ رُدّ إلى دار السلطان ، وجُعل مع سائر الرءوس فى خزانة الرءوس على الرسم " [1] .

ابعد هذا يأخذنا العجب ونمتعض لأن الشعراء استخدموا مع الشمعة عبارات مفزعة مثل : قطع الرأس وجزّها وضرب العنق ، أيأخذنا العجب من عصر تحتوى دار السلطان فيه على خزانةَ للرءوس . خِزانة للرءوس فى دولة إسلامية !! بل وتتعرض هذه الرءوس للعبث . يحكى مسكويه : " حدّثنا سلامة الطولونى الحاجب إنه لما أُخرج إليه راس مؤنس ليصلحه فرّغ الدماغ منه ووزنه فكان ستة ارطال ... " [2] .

إنّه عصر كل الرءوس فيه كانت معرضة للقطع وكل الأعناق معرضة للضرب حتى الشعراء أنفسهم لم يكونوا آمنين على رءوسهم . فشىء طبيعى أن تتردد هذه التعبيرات فى أشعارهم . وينبغى أن نهوّن على أنفسنا فهذه كانت ثقافة العصر .

٧- نهاية الشمعة :

عبر الشعراء عن النهاية المأساوية للشمعة بعدة تعبيرات ، وهى تعبيرات فى معظمها تدل على المعاناة التى تعيشها الشمعة من أجل أن تؤدى

---

[1] - تجارب الأمم ، جـ ١ ، ص ٢٦٨ .

[2] - نفسه ، جـ١ ، ص ٢٦٨ .

دورها . ومن هذه التعبيرات " النار فيها كالأجل ، حياته مرهونة بفنائه ، أرواحها تأكل أجسادها ، تأخذ روحه من جسمه ، تفنى ، قِصَرُ الأعمار ، النار فيها تستعر ، فيها النار تشتعل ، النار فى عذباته ، ناره فى المفرق " .

وكلها تعبيرات تفيد أن الشمعة تقدم نفسها قرباناً حتى تضىء للآخرين.

٨- نور الشمعة :

عبر الشعراء عن إضاءة الشمعة ونورها فى الليل بصور مختلفة ومعظمها صور مجازية ، مثل :

- تكيد الظلام ، أى تنيره .
- النجوم المضيئة : فقالوا : " هى بالليل أنجم صفر ، هى بالليل أنجم زهر ، ثمارها مثل مصابيح الأفق " .
- الضحك والابتسام : فقالوا : " أضحكت جنح داجى الظلام ، تريك ابتساماً، ضحكها وابتسامها ، الليل يضحك " .
- النهار أو الضحى : فقالوا : " أعاد جنح الليل وهو ضحاء، عاد ظلام الليل كالنهار ، تحاكى الصباح بمصباحها " .
- البياض : فقالوا : " تثنى الدجى عن لونه فيعود مبيضَ الحجاب " .
- الفجر المنير : يشق جلاليب الدجى فكأنما بين أيدينا عمود من الفجر .
- بصيرة ليل .
- ليلة البدر : فقالوا : " فوقه شعاع كأنه ليلة البدر " .
- الشهاب : فقالوا : " عاينت سهماً يضىء " .

وهكذا وجدنا الشعراء قد عبروا عن نور الشمعة وإضاءتها بتعبيرات مختلفة وكلها تعبيرات مجازية كما أشرنا .

منزلة الشمعة :

فنظرا لما تؤديه الشمعة من دور الإضاءة وتجميل المكان الذى توضع فيه احتلت مكانة لدى الخاصة بالذات . ولهذا وجدنا الشعراء يعبرون عن هذه المنزلة التى تحتلها الشمعة . فقالوا : " من ند ء الملوك ، هيفاء مـــن نـــدماء الملوك ، نديمة فى الظلام " .

كما عبروا عن طهارتها وأصالتها فقالوا : " سليلة النحل ، من بنـــات النحل " .

وبهذا نكون قد انتهينا من دراسة المعجم الشـــعرى للشـــمعة ، حيـــث أبرزنا جميع المجالات التى دار عليها شعر الشمعة والتعبيرات الخاصة بكـــل مجال . وبنهاية المعجم الشعرى أيضاً نكون قد انتهينـــا مـــن ســـرد بعـــض الملاحظات الفنية فى شعر الشمعة . والتى بها ينتهى هذا البحث .

والحمد لله رب العالمين

خاتمة البحث

خاتمة البحث

وفى النهاية نحاول أن نجمل ما جاء بين صفحات البحث .

ففى التمهيد تناول البحث المعنى اللغوى للشمعة ، وإنتاج الشمع وأنواعه ، واستخداماته ، وموقف الأدب من الشمعة .

وفى الفصل الأول دار البحث حول وصف الشمعة فوجدنا الشعراء تحدثوا عن قوام الشمعة واعتداله وتحدثوا عن لونها وعن دموعها ونهايتها .

ثم تحدثوا عن فوائد الشمعة حيث استخدمت كوسيلة للإضاءة ، وهدية قيمة تقدم فى المناسبات كما استخدمت للزينة فى البرك والطسوت ، كما ، كما كانت تعين على السهر ليلاً فى الأديرة للشراب .

كما استخدمت الشمعة كمصدر لشعر الألغاز نظراً لما تحمله من دلالات تجسّد فى النفوس مثلاً حياً للتضحية .

والفصل الثانى دار حول الشمعة فى وجدان الشعراء ، حيث رصد بعض الإسقاطات النفسية لعدد من الشعراء على الشمعة فتناولنا من الشعراء : السرّى الرفّاء، وابن هانئ الأندلسى ، وابن الأنبارى ، وأبو الفرج الببغاء ، وأبو العلاء المعرى ، وابن ماكولا ، والفارقى ، والطغرائى ، وأسامة بن منقذ.

وفيه وجدنا الشعراء لم يكتفوا بوصف الشمعة وتأملها فقط بل جعلوا منها كائناً حياً ، يحس بهم فيبثونها أحزانهم ويخلعون عليها مشاعرهم .

ودار **الفصل الثالث** حول : شعر الشمعة نظرات فنية ، وفيه لوحظ غلبة المقطوعات الشعرية على شعر الشمعة ، إذ لا يوجد فى شعر الشمعة إلا قصيدة الأرّجانى التى جعل مقدمتها فى وصف الشمعة تصل إلى أربعة وأربعين بيتاً ، وفيه وجد كثرة الصور التى تستخدم الشمعة كمشبه وقلة الصور التى تستخدم الشمعة كمشبه به .

كذلك وجدنا الشمعة تستخدم فى بعض التعبيرات ، كما لاحظنا غلبة الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية على شعر الشمعة ، وعللنا ذلك بأن فلسفة الشمعة قائمة على الثنائيات المتضادة مثل الطباق والمقابلة .

وكذلك لاحظنا غلبة الأساليب الخبرية على الإنشائية ، وعللنا بأن الشاعر ما أراد أن يخاطب طرفاً خارجياً على الأغلب .

كما لاحظنا أن شعر الشمعة جاء على معظم أوزان الشعر وقوافيه وضربنا الأمثلة على ذلك .

ثم خُتم الفصل بمعجم لشعر الشمعة ، حيث استخدم الشعراء عبارات خاصة لكل سمة أو حالة من سمات الشمعة وحالاتها . فرصدنا العبارات التى دلت على : اللون والشكل ، والقد ، والمرض ، ودموع الشمعة ، وقطّ الرأس ونور الشمعة ، ومنزلة الشمعة .

وهكذا انتهى البحث الذى أسأل الله أن ينفع به ويوفقنى إلى الحق والصواب دائماً .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١- **الأحاجى والألغاز الأدبية .**

عبد الحى كمال – مطبوعات نادى الطائف الأدبـــى – الطبعـــة الثانيـــة ١٤٠١هـ

٢- **أنباء الرواه .**

للقفطى – ت محمد أبو الفتح إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ، ١٩٨١م .

٣- **تجارب الأمم :**

لأبى أحمد بن محمد المعـــروف بمسـكويه ، دار الكتـــاب الإســـلامى – القاهرة.

٤- **الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .**

لآدم متز – ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبـــو ريـــدة ، القـــاهرة – ١٩٤٠م .

٥- **خزانة الأدب وغاية الأرب .**

تقى الدين أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى – شـــرح عصـــام شعيتو – دار مكتبة الهلال – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٩١م .

٦- **دمية القصر وعصرة أهل العصر :**

لأبى الحسن الباخرزى . ت – د . سامى مكى العانى ، دار العروبـــة – الكويت – الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٧- **ديوان الأرَّجانى :**

ناصح الدين أحمد بن محمد – تقديم وشرح ، قدرى مايو ، دار الجيــل – بيروت – الطبعة الأولى ، ١٤١٨هـــ ، ١٩٩٨م .

٨- **ديوان أسامة بن منقذ .**

ت د . أحمد بدوى وحامد عبد المجيد – عالم الكتب – بيروت ، الطبعــة الثانية ١٤٠٣هـــ ، ١٩٨٣م .

٩- **ديوان سبط التعاويذى .**

لأبى الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بســبط التعاويــذى ، ت.ر.س مرجليوث – دار صادر – بيروت .

١٠- **ديوان السَّرّى الرفّاء .**

للسّرّى بن أحمد الكندى أبو الحسن الرّفاء – تحقيــق كــرم البســتانى – مراجعة ناهد جعفر – دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ .

١١- **ديوان الصنوبرى .**

أحمد بن محمد الحسن الضبّى – تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صـــادر – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٨م .

١٢- **ديوان الطغرائى .**

لأبى إسماعيل الحسين بن على – تحقيق . على جواد الطاهر ود. يحيــى الجبورى – دار القلم – الكويت – الطبعة الثانية ١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م .

١٣- **ديوان كشاجم .**

محمود بن الحسن – تحقيق : النبوى عبــد الواحــد شــعلان ، مكتبــة الخانجي– الطبعة الأولى ، ١٤١٧هـــ – ١٩٩٧م .

١٤- **ديوان الميكالى .**

عبد الله بن احمد بن على الميكالى – تحقيق : جليل العطية – عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

١٥- **ديوان الوأواء الدمشقى .**

أبو الفرج محمد بن أحمد الغسانى المشهور بالوأواء – تحقيق د. سامى الدهان – دار صادر – بيروت – الطبعة الثانية ، ١٩٩٣م .

١٦- **رسوم دار الخلافة .**

لأبى الحسن الهلال الصابئ – تحقيق ميخائيل عواد – دار الرائد العربى – بيروت .

١٧- **زهر الآداب .**

لأبى إسحاق إبراهيم بن على الحصرى القيروانى – تحقيق د. زكى مبارك – دار الجيل – بيروت – الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢ .

١٨- **شعراء من العصر العباسى الثانى .**

الدكتور عبد الله أحمد باقازى – ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

١٩- **شعر الببغاء .**

دراسة وتحقيق . د. سعود محمد عبد الجابر – مؤسسة الشرق للعلاقات العامة – عمان الأردن – الطبعة الأولى ١٩٨٣م .

٢٠- **شعر المكفوفين فى العصر العباسى .**

د. عدنان عبيد العلى – دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – ١٩٩٩م .

٢١- **علم المعانى .**

د. عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية – بيروت ، ١٩٧٤م .

٢٢- العمدة فى صناعة الشعر ونقده .

لأبى الحسن بن رشيق القيروانى – تحقيق د. مفيد محمـد قميحـة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م .

٢٣- عيون الأخبار .

لابن قتيبة – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

٢٤- اللغة واللون .

د. أحمد مختار عمر – عالم الكتب – الطبعة الثانية ، ١٩٩٧م .

٢٥- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص .

للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسى – تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد – عالم الكتب – بيروت – ١٣٦٧هـ – ١٩٤٧م .

٢٦- معجم الأدباء أو إرشاد الأريب فى معرفة الأديب .

لأبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١١هـ – ١٩٩١م .

٢٧- منهاج البلغاء وسراج الأدباء .

لأبى الحسن حازم القرطاجنى – تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة – دار الغرب الإسلامى – بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

٢٨- الموسوعة العربية العالمية .

مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر – الرياض – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٢٩- نزهة الأبصار فى محاسن الأشعار .

شهاب الدين أبى الحسن العنابى – تحقيق : السيد مصطفى السنوى وعبد اللطيف أحمد لطف الله – دار القلم – الكويت – الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م .

٣٠- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة .

للقاضى أبى على المحسن بن على التنوخى – تحقيق عبود الشــالجى – دار صادر – بيروت – ١٣٩١هـ – ١٩٧١م .

٣١- نكت الهميان فى نكت العميان .

لصلاح الدين الصفدى – المطبعة الجمالية فى مصر .

٣٢- الوزراء أو تحفة الأمراء .

لأبى الحسن الهلال الصابى – تحقيق عبد الستار فراج – عيسى البــابى الحلبى – ١٩٥٨م .

٣٣- وفيات الأعيان .

لابن خلكان – تحقيق د. إحسان عباس – دار صادر ، بيروت .

٣٤- يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر .

لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعــالبى – دار الكتــب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥-٧
التمهيد	٩-١٩
الفصل الأول : وصف الشمعة	٢١-٥١
الفصل الثانى : الشمعة فى وجدان الشعراء	٥٣-٩٨
الفصل الثالث : شعر الشمعة ، نظرات فنية	٩٩-١٣٠
خاتمة البحث	١٣١-١٣٤
المصادر والمراجع	١٣٥-١٤١